من الأسرار البلاغية
في خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه
عند توليه الخلافة

أ.د/ سلامة جمعة علي داود
عميد كلية اللغة العربية
بإيتاي البارود

من الأسرار البلاغية في خطبة أبي بكر الصديق ﷺ عند توليه الخلافة

سلامة جمعة علي داود
أستاذ، قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، إيتاي البارود، جمهورية مصر العربية.
البريد الإلكتروني: Salamadaoud.2.34@azhar.edu.eg

ملخص البحث: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد،،

ففي عام ١٤٤٠ هـ ٢٠١٩ م عُهِدَ إليَّ أنْ أَدْرُسَ مع طلاب وطالبات الدراسات العليا بجامعة الأزهر تحليلَ شيخِنا العلامة الدكتور محمد أبي موسى لخطبة أبي بكر الصديق ﷺ عند توليه الخلافة، فبَدَتْ لي في الخطبة لطائفُ معانٍ لم يُقَيِّدْها شيخُنا، وإنْ قَيَّدَ ما هو أَجَلُّ منها، فلما خَشِيْتُ عليها النسيانَ والضياعَ قَيَّدْتُها بالكتابةِ في هذه الأوراق، وما هي مما قَيَّدَ الشيخُ أَوَابَدَهُ إلا كالثَّرَى من الثُّرَيَّا، وازداد يقيني بأن البيانَ العالي تَتَغَازَرُ أسرارُه ويَصْعُبُ أنْ يُحَاطَ بها، وأن هذا البيان كلما مَخَضَهُ الدارسُ أَخْرَجَ زُبْدَتَه، وأن الله جَلَّ وعَلا يَرُدُّ أَيْدِي طُلابِ العِلْمِ مَلْأَى تَفِيضُ بالخَيرِ مِن فَضْلِه، إذا هُمْ أَخْلَصُوا وصَبَرُوا، وأنه جَلَّ وتَقَدَّسَ ضَمِنَ لأهل العلم أن لا يَنْقَلِبَ الفِكْرُ خَاسِئًا وهو حَسِير.

وهذه الدراسة وَمَضَاتٌ عَجْلَى ونَظَرَاتٌ خَجْلَى فيما انطوت عليه الخطبة من لطائف وأسرار، لم تَنَلْ من أنوارِها وأسرارِها إلا ما تَيَسَّرَ ودَنَا قِطافُه، ولم تَنْزِلْ مما قام على شَرَفِ خِدْمَتِها وتَذَوُّقِ أسرارِها إلا كما يَنْزِلُ السَّارِي مِنَ القَمَرِ السَّارِي؛ وإن تكن في الأرض أنفاسُه، فمِن نُورِ البَدْر اقتباسُه، وبهِ كان هَدْيُهُ وإيناسُه، فالأَمْرُ كما قال أبو عُبادة:

كَالبَدرِ أَفْرَطَ في العُلُوِّ وَضَوؤهُ لِلعُصبَةِ السارينَ جَدُّ قَرِيبِ

الكلمات المفتاحية: بلاغة أبي بكر الصديق- الخلافة الراشدة- الصحابة- خطب الخلفاء الراشدين.

Among the rhetorical secrets in the sermon of Abu Bakr Al-Siddiq upon assuming the caliphate

Salama Juma Ali Dawood
Professor, Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Al-Azhar University, Itay Al-Baroud, Arab Republic of Egypt.
Email: Salamadaoud.2.34@azhar.edu.eg

Summary of the research: Praise be to God, Lord of the worlds, and may God's prayers be upon our Master Muhammad and upon all his family and companions.
In the year 1440 AH 2019 CE, I was entrusted with studying with students of postgraduate studies at Al-Azhar University the analysis of our scholar Sheikh Dr. Muhammad Abi Musa of the sermon of Abu Bakr Al-Siddiq upon assuming the caliphate. when he feared it forgetfulness and loss constrained writing in these papers, and are thus under Sheikh Owabdh only Kalthery of the chandelier, I am convinced and increased that the higher the statement Ttagazr his secrets and is difficult to be surrounded by them, and that whenever the statement Mkhaddh the student took out Zbdth, and that Allah Almighty is given the hands of students Knowledge is full of goodness from its bounty, if they are saved and patient, and that it is glorified and sanctified, it has ensured for the people of knowledge that the mind will not turn into a vain thing.
This study and flashes of haste and embarrassed looks, in the sermon contained in the gentle and secrets, did not attain from its lights and secrets except what was easy, and it did not come down from what was based on the honor of my servants and served it And if its breath is on the earth, then from the light of the full moon is its citation, and by it its guidance and its affection, so the matter is as Abu Ubada said:
Like a full moon, it shines too high for the sarin band very close

Key words: the rhetoric of Abu Bakr al-Siddiq - the Rashidun Caliphate - the Companions - The speeches of the Rightly Guided Caliphs.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي العربي الصادق الأمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

فإنَّ مِن الكلامِ العالي الذي ارْتَقَى في البيان مَرَاقِيَ العُلا، واستولى فيه على الرُّتْبَةِ العُلْيَا في البيان البشري بعد كلام الرسول ﷺ، كلامَ صحابتِه الأبرارِ وعِتْرَتِهِ الأخيار، وفي القمة منه كلامُ سيدِنا أبي بكر الصدِّيق ﷺ، وهذه وَمَضَاتٌ عَجْلَى ونَظَرَاتٌ خَجْلَى فيما انطوت عليه خُطْبَتُهُ عندما تَولَّي الخلافةَ من لطائف وأسرار، لم تَنَلْ من أنوارِها وأسرارِها إلا ما تَيَسَّرَ ودَنَا قِطافُه، ولم تَنْزِلْ مما قام على شَرَفِ خِدْمَتِها وتَذَوُّقِ أسرارِها إلا كما يَنْزِلُ السَّارِي مِنَ القَمَرِ السَّارِي؛ وإن تكن في الأرض أنفاسُه، فمِن نُورِ البَدْر اقتباسُه، وبهِ كان هَدْيُهُ وإيناسُه، فالأَمْرُ كما قال أبو عُبادة:

كَالبَدرِ أَفْرَطَ في العُلُوِّ وَضَوؤهُ ... لِلعُصبَةِ السارينَ جَدُّ قَريبِ

تفصيل بعد إجمال :

حَلَّلَ شَيخُنا العلامةُ الدكتور محمد أبو موسى – حفظه الله تعالى – هذه الخطبة مع طلاب قسم أصول الدين في جامعة بنغازي في العام الجامعي ١٩٧٦ / ١٩٧٧ م، وطَبَعَ هذا التحليل الرائق ضمن كتابه " قراءة في الأدب القديم " في دار الفكر العربي ١٩٧٨ م، في ثماني صفحات من صفحة ٣٠٤ إلى صفحة ٣١١، وقرأته وأنا في غضارة الشباب في مرحلة الدراسات العليا في أوائل التسعينيات من القرن الماضي ورأيت أن الشيخ أربى على الغاية ولم يَدَعْ لقائلٍ مقالا، ثم مضت سنواتٌ قليلةٌ سَجَّلَ فيها زميلُنا النابه الدكتور أحمد أحمد على عَطْوَان رسالة التخصص الماجستير في " الخصائص البلاغية في كلام أبي بكر الصديق ﷺ"، وكان يُطْلِعُنِي على ما يَكْتُبُ وأُراجعُه ويُرَاجِعُنِي، فقرأتُ له مما قرأتُ تحليلَه للخطبة ورأيته متذوقا متعمقا له ذو محاسنَ جَمَّة، وبعد سنين لا أذكر عددها رَغِبَ شيخُنا أن يَطْبَعَ لأخي عطوان عند " مكتبة

وهبة " متن كلام أبي بكر ﷺ، وقال لي " لأني أُحِبُّ أن يَشِيعَ في الناس كلامُ أبي بكر ﷺ" ؛ فحَبَّبَ إلينا الشيخُ كلامَ الصحابة، وحَبَّبَ إلينا تَذَوُّقَهُ، أيام كان تَذَوُّقُ البيان عند الناس مصروفا – في أغلبه – إلى الشعر، وفي عام ١٤٢١ هـ ٢٠٠١ م طَبَعَ الشيخ سِفْرَهُ النفيس" شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سَمْتِ الكلام الأوَّل "، وفي صفحة ٤٥٠ منه ذَكَرَ أنه أضاف إلى هذا الكتاب ماكان نشره في كتابه " قراءة في الأدب القديم " من تحليل النثر، ومنه تحليل الخطبة إلا أني وجدتُه يقع في هذا السِّفْرِ في عشرين صفحة من صفحة ٧٢٧ إلى صفحة ٧٤٦ بعدما كان يقع في الكتاب الأول في ثماني صفحات فقط، أي أن الشيخ أضاف إليه اثنتي عشرة صفحة، فأضاف إليه من التحليل أكثر مماكان كَتَبَهُ أولا منذ ما يقرب من ربع قرن من الزمان، وهذا وحدَه دَرْسٌ جليلٌ نتعلم منه طولَ المراجعة ومعاودة النظر والبحث والتفكير، حتى يضيف المؤلف إلى العمل الذي كان صَنَعَهُ وفَرَغَ منه مِثْلَ حَجْمِه أو أكثر، وإذا قلتُ إن الشيخ حين حلل الخطبة في ثماني صفحات في كتابه " قراءة في الأدب القديم " قد أربى على الغاية ولم يدع لقائل مقالا، فقد تَبَيَّنَ بعدما أضاف إليه ما أضاف أن الشيخ لا يَقِفُ في البحث والدرس عند غاية، وأنه كلما أعاد النظر فيما فرغ من دراسته انفتحت له فيه آفاقٌ وآفاقٌ وأسرارٌ وأسرار، ثم دار بي الزمان دَوْرَتَهُ حتى جاء عام ١٤٤٠ هـ ٢٠١٩ م وعُهِدَ إليَّ تدريسُ تحليل شيخنا للخطبة لطلاب وطالبات الدراسات العليا " الفرقة الأولى قسم الأدب والنقد "، وقُلْتُ إن الشيخ لم يُبْقِ لغيره شيئا، وكان حالي كما قال الشاعر الدكتور أمين سالم :

قد كِدْتُ أَحْمِلُ أَوْرَاقِي وأَنْصَرِفُ ... لم يَبْقَ لي بَعْدَهُ دُرٌّ ولا صَدَفُ

ولكن مع تدريس شرح الشيخ بَدَتْ في الخطبة لطائفُ معانٍ لم يُقَيِّدْها، وإنْ قَيَّدَ ما هو أَجَلُّ منها، فلما خَشِيْتُ عليها النسيانَ والضياعَ قَيَّدْتُها بالكتابةِ في هذه الأوراق، وما هي مما قَيَّدَ الشيخُ أَوَابَدَهُ إلا كالثُّرَيَّا من الثُّرَيَّا ،وأَيْقَنْتُ أن البيانَ العالي تَتَغَازَرُ أسرارُه ويَصْعُبُ أنْ يُحَاطَ بها، وأن هذا البيان كلما مَخَضَهُ

الدارسُ أَخْرَجَ زُبْدَتَه، وأن الله جَلَّ وعَلا يَرُدُّ أَيْدِي طُلابِ العِلْمِ مَلْأَى تَفِيضُ بالخَيرِ مِن فَضْلِه إذا هُمْ أَخْلَصُوا وصَبَرُوا، وأنه جَلَّ وتَقَدَّسَ ضَمِنَ لأهل العلم أن لا يَنْقَلِبَ الفِكْرُ خَاسِئًا وهو حَسِير.

مناسبة الخطبة :

لما لَحِقَ الرسولُ ﷺ بالرفيق الأعلى، اجتمع نفرٌ من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة لاختيار خليفةٍ لرسول الله ﷺ، فاختاروا سيدنا أبا بكر الصديق ﷺ، وبايعوه في السقيفة، وسُمِّيَتْ هذه البيعة ببيعة السقيفة وبالبيعة الأولى، فلما كان الغد بايعه المسلمون في المسجد النبوي وسُمِّيَتْ هذه البيعة ببيعة العامة وبالبيعة الثانية، وبعد تمام البيعة قام سيدنا أبو بكر ﷺ فصَعَدَ الْمِنْبَرَ، ونَزَلَ مِرْقَاةً مِنْ مَقْعَدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَحَمَدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ هذه الخطبة "[1]".

للخطبة روايتان مشهورتان :

الرواية الأولى: وهي التي اعتمد عليها شيخُنا في تحليل الخطبة :

"أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ وَلِيتُ أَمْرَكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ وَلَكِنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ وَسَنَّ النَّبِيُّ – ﷺ – السُّنَنَ فَعَلَّمَنَا فَعَلِمْنَا. اعْلَمُوا أَنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ التَّقْوَى، وَأَنَّ أَحْمَقَ الْحُمْقَ الْفُجُورَ، وَأَنَّ أَقْوَاكُمْ عِنْدِيَ الضَّعِيفُ حَتَّى آخِذَ لَهُ بِحَقِّهِ، وَأَنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِيَ الْقَوِيُّ حَتَّى آخِذَ مِنْهُ الْحَقَّ. أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ. فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي وَإِنْ زِغْتُ فَقَوِّمُونِي""[2]".

الرواية الثانية: واعتمدتُ في تحليل الخطبة عليها :

" أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي، الصِّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ، وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ

(١) ينظرعيون الأخبار لابن قتيبة ٢/ ٢٥٤ والبداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٢٦٩ .

(٢) الطبقات الكبرى ط العلمية ٣/ ١٣٦ – واللفظ منها – والرواية في عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/ ٢٥٤ وتاريخ الخلفاء ص ٥٨ وكنز العمال ٥/ ٦٠٧برقم ١٤٠٧٣ وإمتاع الأسماع ١/ ٣٧٨ .

قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرَبَهُمْ اللَّهُ بِالذُّلِّ، وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمْ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ . قُومُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمُكُمْ اللَّهُ ""[1]" .

ما اتفقت فيه الروايتان :

اتفقت الروايتان في الجمل الآتية :

" أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي، وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ".

ومع اتفاق الروايتين في هذه الجمل، إلا أن بينهما فروقا يسيرة في الكتب، ففي بعضها " وُلِّيتُ أمركم " في موضع " وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ "، وفي بعضها " وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ القَوِيٌّ عندي ٠٠ وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ الضَعِيفٌ عِنْدِي" في موضع " وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي ٠٠٠ وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي " الفرق بينهما في التعريف والتنكير، وفي بعض الكتب " حتى آخذ الحق منه ٠٠ حتى آخذ الحق له " في موضع " حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ٠٠٠ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ "، وفي بعضها حذف المشيئة في موضع ذكرها.

ما اختلفت فيه الروايتان :

زادت الرواية الأولى على الرواية الثانية الجمل الآتية :

---

(١) سيرة ابن هشام ت السقا (٢/ ٦٦١) ، وتاريخ الطبري ٢١٠/٣ ، والكامل في التاريخ ١٩٢/٢، وجامع معمر بن راشد باب لا طاعة في معصية ٣٣٦/١١ برقم ٢٠٧٠٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٢٦٩ ،والسيرة النبوية لابن كثير ٤/ ٤٩٣ ، وقال فيهما " وهذا إسناد صحيح "

"ولكنه نزل القرآن، وسنّ رسول الله ﷺ، وعَلَّمَنا فعَلِمْنَا، اعلموا أيها الناس أنّ أكيس الكيس التّقى، وأنّ أحمق الحمق الفجور، إنما أنا متّبع ولست بمبتدع"

وزادت الرواية الثانية على الرواية الأولى الجمل الآتية:

"الصَّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ، لَا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرَبَهُمْ اللَّهُ بِالذُّلِّ، وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمْ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ. قُومُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمُكُمْ اللَّهُ".

وبالجمع بين الروايتين يمكن القول باستيفاء أكثر الخطبة، ولم يبق إلا كلمات يسيرة انفردت بها بعض الكتب، أذكر منها ما وقفت عليه في التحليل إن شاء الله تعالى.

من الأسرار البلاغية في الخطبة:

قوله ﷺ:

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ "

في افتتاحه خطبته ﷺ بهذا النداء "يا أيها الناس" تنبيه وإيقاظ لأهمية ما يُلْقَى عليهم؛ لأنه في أمر جلل وهو أمر الخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ، وفيه تكريم للحاضرين أمامه، وهم من صحابة الرسول ﷺ، وذلك بأن جعلهم الناسَ كُلَّ الناسِ؛ وفي هذا تَلَطُّفٌ وُحْسُن تَأَتٍ واستمالةٌ للمخاطَب حين يرى المتكلمَ يُجِلُّهُ ويَعْرِفُ قَدْرَهُ وسابقَتَهُ في الإسلام فيُنْزِلُهُ مَنْزِلًا عَلِيًّا ٠٠ ومعلوم أن أبا بكر أراد بخطابه المسلمين في زمانه لأنهم هم الذين له عليهم ولاية، وهم الذين سَيُوَلَّى أمرَهم، وليس كل الناس في زمانه؛ لأن الناس في زمانه ﷺ فيهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وفيهم أهل الشرك وفيهم المجوس من الفرس وفيهم غير ذلك، ومن ثم فإطلاق عموم "الناس" ليس المراد به كل الناس بل بعضهم وهم المسلمون في زمانه ﷺ، وعليه ففيه مجاز مرسل علاقته الكلية حيث أطلق الكل وأراد البعض، تكريما للمسلمين لأنهم هم الأحرياء باسم الناس، وفي هذا مدح لهم وإغراء لمن ليس منهم ليدخل في زمرتهم ؛ فيكون من "الناس".

وفي نداء الحاضرين من الصحابة بعموم لفظ "الناس" أيضا إشارة إلى أن ما سيلقى عليهم مما سينتشر فيعلمه الناس، وأن علمه لن يكون مقصورا على أهل هذا المجلس، بل سيسير مسير الضحى في البلاد، ويدخل ما دخل عليه الليل والنهار.

وقوله ﷺ "إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ" جملة مؤكدة بـ "إنَّ" و"قد" وهو حرف تحقيق، وهذا التوكيد مناسب للمقام لقطع المنازعة في أمر الخلافة، فإنه قد تم واستتب، وصار للمسلمين خليفة بعد رسول الله ﷺ، ولم يعد أمر الخلافة مما يحتمل الجدال ولا المنازعة، وهذا كلام قاطع حاسم في مقام لا يجدي فيه إلا القطع والحسم، وهذا يهيىء النفس إلى أن أمر الخلافة سيكون قائما على القطع والحسم والقوة ؛ وكأن هذه الجملة توطئة وتهيئة لماسيذكره ﷺ بعد ذلك في قوله " الضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرَبَهُمْ اللَّهُ بِالذُّلِّ".

وبناء الفعل " وُلِّيتُ " للمفعول يرسم السبيل الأرشد إلى الولاية العامة في هذه الأمة، وأن الإمام أو الخليفة أو الرئيس لا يُوَلِّي نفسه بنفسه، ولا يصل إلى هذا المنصب بذاته، سواء أكان صالحا مستحقا له، أم كان نَبْتًا شَيطانيًّا مُتَسَلِّقًا لا يَسْتَحِقُّهُ ولا يكون أهلا له، فهو في كلا الحالين لا يُوَلِّى نَفْسَه بنَفْسِه ولا يأخذ السلطة بذاته، إنما يوليه إياها الناس الذين سيكون واليا عليهم وخليفة وإماما ورئيسا وزعيما، فالإسلام لا يَعْرِفُ سياسةَ القَفْزِ على السلطة ولا يُقِرُّها، بل إنه لايعطيها لمَن طَلَبَها وسَعَى إليها، ففي مسند الإمام أحمد من حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ سَمُرَةَ أنه قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، أُعِنْتَ عَلَيْهَا ""[1]"، بناء الفعل " وُلِّيتُ " للمفعول دل على أن الخليفة

(١) مسند أحمد حديث عبد الرحمن بن سَمُرَة ، ط الرسالة ٣٤/ ٢٢٣ برقم ٢٠٦١٨ .

والإمام إنما يكون خليفة وإماما باختيار الأمة والشعب لا باختياره هو، فليس له من هذا الأمر شيء.

وفي البناء للمفعول معنى آخر، وهو الإشارة إلى كراهية أبي بكر ﷺ لهذه الولاية وفراره من هذا المنصب، ولولا أنه فُرِضَ عليه فرضا ما قَبِلَهُ ولا تحمل تبعاته الجسام؛ وقد صرح سيدنا أبو بكر ﷺ بهذا فقال كما جاء في بعض روايات هذه الخطبة " وَلَقَدْ كُنْتُ لِمَقَامِي هَذَا كَارِهًا، وَلَوَدِدْتُ لَوْ مَنْ يَكْفِينِي""[1].

والتعبير بحرف الجر "على" في قوله "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ " نَصٌّ في الاستعلاء؛ إلا أن الاستعلاء هنا ليس استعلاء كِبْرٍ ولا عُجْبٍ ولا زَهْوٍ بالولاية، بل للاستعلاء هنا معانٍ عَلِيَّةٌ، منها:

المعنى الأول: الإحاطة بأحوال الرعية ؛ فهي تحت سمعه وبصره، يراها الإمام المسئول كأنه يطل عليها من مكان عال مرتفع فلا يخفى عليه شيء من هموم أمته، ولا ينتظر من يُبَصِّرُهُ بها ويأتيه بخبرها ويُعْلِمُه إياها، فهذا أمر يقوم عليه الوالي حتى كأنه يراه رأى عين، ولا يتكل على أخبار الذين يزيفون الحقائق ليُحَسِّنُوا الصورة في عين الوالى والمسئول، ويقولون له: إن كل شيء على ما يُرام، وإن الشعب يعيش أفضل أيامه وأروع أزمانه، وكُلُّ هذا كَذِبٌ وتدليسٌ وتزويرٌ وتزييفٌ للحقائق، والوِزْرُ الأكبر في ذلك على الوالي الذى منحه الله تعالى هذا المكان العلي ليرى بنفسه ويسأل بنفسه ويتحرى بنفسه ولا تضلله أكاذيبُ حاشيةِ السوء وبطانة السوء ٠٠ حرف الجر "على " يقول للوالي إنك وُضِعْتَ في مكان عال تُطِلُّ فيه على أحوال رعيتك وشعبك ومؤسستك ومدرستك وكليتك وجامعتك وبيتك ومصنعك وحقلك ٠٠ إلخ ؛ فعارٌ عليك أن توضع في هذا المكان العالي ثم تكون غافلا لا ترى ما يدور حولك ولا تُبْصِرُ أحوال من استولاك الله واسترعاك، يقول حرف الجر لك كُنْ يَقِظًا لكل ما يدور حولك ولاتكن مُغَفَّلا، لا تكن رئيسا غافلا، ولا واليا غافلا، ولا

(١) جامع معمر بن راشد باب لا طاعة في معصية ١١/ ٣٣٦ برقم ٢٠٧٠١

عميدا غافلا، ولاوزيرا غافلا، ولا مسئولا غافلا، اِحْذَرِ الغفلةَ عما يدور حولك، واحذر الغفلة عن أحوال من ائتُمِنْتَ عليهم واسترعاك الله أمورَهم ٠٠ فإن كنت لا تستطيع ذلك بل تجلس قابعا على كرسي سلطانك، فالأولى بك أن تترك هذا الأمر لأهله القادرين عليه المُطِيقِينَ له.

المعنى الثاني: أن العُلُوَّ هنا عُلُوُّ رحمةٍ من الوالي بمَنْ تَحْتَهُ مِن الرعيةِ، فهو لهم كالطائر يَخْفِضُ لهم جَناحَيْهِ، وكالسماء تُظِلُّهُمْ وتُمِدُّهُمْ بالخير، وكالسقف يحفظهم ويقيهم الحَرَّ والقُرَّ، هو عُلُوُّ مَن يُمْسِكُهُمْ بِيَدِهِ الحانيةِ ويَبْسُطُ عليهم عَطْفَهُ وحَنَانَهُ ومحبَّتَه ويَبْسُطُ عليهم الخيرَ والنماء، وهذه المعاني كامنة في التعبير بـ "على" في قول الله جل وعلا" حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ " (التوبة١٢٨)، عُلُوُّ الراعي على رعيته عُلُوُّ خَيرٍ لهم وحِرْصٍ عليهم، لا عُلُوُّ كِبْرٍ وعُجْبٍ وزَهْوٍ واستخفافٍ بالرعيةِ وتفريطٍ في حقوقهم، فضلا عن إيذائهم والتنكيل بهم وتسخيرهم لخدمته ومصلحته، مع أن الأصل أن الوالى هو القائم على خدمتهم ورعاية شئونهم.

المعنى الثالث: في حرف الاستعلاء دلالة على علو الوالي وقوته ليكون قادرا على انتزاع الحق من القوي الظالم وأخذ الحق للضعيف المظلوم؛ فالوالي الضعيف لا يكون قادرا على ذلك وإن ادعى قدرته عليه وتمكنه منه؛ فالعدل يحتاج إلى قوة تحققه وتطبقه.

ولما كان التعبير في هذه الجملة بالولاية وبحرف الاستعلاء في "عليكم" موهما خيرية الوالي وفضله على الأمة والرعية، احترس سيدنا أبو بكر ﷺ من هذا الوهم بتلك الجملة الحالية في صدر خطبته فقال "وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ "، وفي هذه الجملة هضمٌ للنفس وتواضع من خليفة رسول الله ﷺ، وتعليمٌ لمن يلي أمر الأمة من بعده أن يتواضعوا ؛ فالرفعة في التواضع، والتصريحُ بهذا المعنى من الخليفة في أول خطبة عند ولايته بَشِيرُ خَيرٍ يُؤْذِنُ بأن الحاكم قد وضع قدميه على الطريق الصحيح المُوَصِّل إلى صلاح الأمة وسعادتها ونهضتها ومجدها ورفعتها، وفرقٌ كبيرٌ بين هذا النهج القويم وبين أن ترى

الحاكم في أول لحظة من ولايته في زَهْوٍ وتَعالٍ وخُيَلاء، بل وغطرسة واستعلاء، وهذا نذيرُ شُؤْمٍ بأن الحاكم قد وضع نفسه على طريقِ أن يكونَ " فِرْعون" لا أن يكون حاكما عادلا صالحا مُصْلِحا.

والحال وَصْفٌ لصاحبه في المعنى، فإذا قلت: جاء زيد ضاحكا، أفاد الحال اتصافه بالضحك وقت مجيئه، وهذا الأصل في بناء الحال يعني أن اتصاف الوالي حال ولايته بهذا المعنى وهو أنه ليس خَيرَ أمته، هذا الوصف مصاحِبٌ للوالي في هذا الحال، فهو متواضع عند ولايته لا يرى نفسه خيرا من رعيته، ولا يرفع نفسه فوق شعبه، بل هو منهم، وإذا استشعر الوالي والحاكم هذا المعنى فالأمة في خيرٍ وإلى خيرٍ ٠٠ الجملة الحالية " وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ " قيد في الجملة الأم "إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ "، والقيد شرط في المقيَّد، ويلزم عن هذا أن تولية الحاكم لا تنفك عن يقينه الثابت بأنه ليس خيرا من أمته وليس أفضل من رعيته.

وأداة النفى في هذه الجملة الحالية ليست حرفا كـ " ما – ولا – ولم"، بل هي الفعل الماضي الناسخ " ليس "، فأفاد هذا الفعل مع النفي الدلالة على تحقق نفي الخيرية، كما يفيد " ضَرَبَ – وخَرَجَ " تحقق وقوع الضرب والخروج، ثم أُكِّدَ نفى الخيرية بزيادة الباء في خبر "ليس " في قوله " بخيركم "، والأصل: ولستُ خَيْرَكُم، فلما زيدت الباء أفادت تأكيد نفي الخيرية.

ويلاحظ أن أبا بكر ﷺ نفى الخيرية عند الولاية عن نفسه نفيا مؤكدا، مع أن الخيرية ثابتة له ﷺ بأحاديث صريحة، منها قول الرسول ﷺ في مناقب أبي بكر "وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ""[1]"، وقوله ﷺ "رَأَيْتُ قُبَيْلَ الْفَجْرِ كَأَنِّي أُعْطِيتُ الْمَقَالِيدَ وَالْمَوَازِينَ، فَأَمَّا الْمَقَالِيدُ فَهَذِهِ الْمَفَاتِيحُ، وَأَمَّا الْمَوَازِينُ فَهَذِهِ الَّتِي تَزِنُونَ بِهَا، فَوُضِعْتُ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ أُمَّتِي فِي كِفَّةٍ،

(١) سنن ابن ماجه كتاب الإيمان وفضائل الصحابة ، فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه حديث رقم ٩٣ ٠

فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُ، ثُمَّ جِيءَ بِأَبِي بَكْرٍ فَوُزِنَ بِهِمْ فَوَزَنَ، ثُمَّ جِيءَ بِعُمَرَ فَوُزِنَ فَوَزَنَ، ثُمَّ جِيءَ بِعُثْمَانَ فَوُزِنَ بِهِمْ، ثُمَّ رُفِعَتْ""[1]"؛ فعلى ما صرحت به الأحاديث من فضل أبي بكر ﷺ على الأمة، يكون نفيُه الخيرية عن نفسه لمزيد التواضع وهضم النفس، وأن نفى الحاكم عن نفسه أن يكون خيرا من أمته – باستثناء من نصت الأحاديث على خيريتهم وفضلهم – جارٍ على الأصل؛ لأن الحُكْمَ بخيرية إنسان على غيره أساسُه " التَّقْوَى " كما قال ربنا جل وعلا "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" (الحجرات١٣)، والتقوى مَحَلُّها القلب؛ ولذا كان خَيرُ الناس مطمورًا فيهم لا يعلمه إلا الله جل وعلا.

قوله ﷺ:

"فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي"

هاتان الجملتان تشملان القسمين اللذين لا ثالث لهما مما يكون عليه الحاكم، وهما الإحسان والإساءة، ولا ثالث لهما، وهذا من التقسيم الحَسَنِ المستوفِي الذي لايدع مجالا للزيادة عليه، وهذا يعني أن أمر الراعي والرعية منضبط غاية الانضباط، فليس أمام الحاكم إلا الإحسان أو الإساءة، وليس أمام الرعية – إذا أرادوا الصلاح والتقدم – إلا أن يعينوه إذا أحسن، أو يقوموه إذا أساء، وهذا الانضباط يُيَسِّرُ السبيل إلى تقييم الحاكم ووزن سياسته بهذا الميزان الدقيق الذي يجمع الإحسان في كفة والإساءة في الكفة الثانية، فليس تقييم الحاكم أمرا عسيرا محاطا بالضباب متلفعا بسحب من الغيوم أو الظنون والأوهام، وليس فيه مجال للفلسفة أو الشطح البعيد، وإنما المقياس واضح: إما إحسان، وإما إساءة، ولا ثالث لهما، وتطبيق هذا على الوالي وعلى كل من ولي أمرا من أمور الناس صغيرا كان هذا الأمر أم كبيرا، تطبيقه سهل جدا، مهما تشعبت بالوالي السبل وتداخلت خيوط عمله ونشاطه وحركته وسياسته

(١) مسند أحمد مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حديث رقم ٥٤٦٩ .

واقتصاده وقضائه وجهوده في الداخل والخارج، فالأمر واضح، مَحَجَّةٌ بَيضاءُ، لا يَزِيغُ عنها إلا هالك.

ومن الوضوح والحسم مجيىء هذا المعنى في أسلوب الشرط وأسلوب المقابلة، ففي أسلوب الشرط رَبْطٌ مُحْكَمٌ بين فعل الشرط وجوابه، فجواب الشرط وجزاؤه مُرَتَّبٌ على تحقق فعل الشرط ومرتبط به ارتباط المبتدأ والخبر والفعل والفاعل، فإعانة الحاكم ونصرته وتأييده والوقوف بجانبه قولا وفعلا وعملا وسلوكا مرتبط ومُتَوَقِّفٌ ومترتب على إحسانه " **فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي**" فالأمر في غاية الوضوح والحسم، فلا إعانة ولا تأييد مع ظلم الحاكم وجَوْرِه وفساده ؛ لأن إعانة الظالم مشاركةٌ له في الظلم، وإعانة المفسد مشاركة له في الإفساد، كما أن إعانة الموفق المصلح العادل المحسن مشاركة له في التوفيق والإصلاح والعدل والإحسان ٠٠ وكذا تقويم الحاكم وتصويب اتجاهاته بالمعارضة قولا وفعلا وسلوكا مرتبطٌ ومتوقف ومترتب على إساءته "**وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي**"، وهكذا نرى أسلوب الشرط فيه وَضْعٌ لكل شيء في موضعه، وبيانٌ صريحٌ كاشفٌ لرد فعل الشعب تجاه الحاكم في الحالتين: الإحسان والإساءة.

وفي أسلوب المقابلة نرى المعنى يوضح ضده ويظهره إظهارا ويكشفه كشفا، فالإحسان تَزِيدُهُ الإساءةُ وضوحا ؛ لأن للإحسان نورا وإشراقا وضياء وفرحا وسرورا، وللإساءة ظلام وسواد وعَتْمَةٌ ليس فيها بَصِيصُ نُور، ولها هَمٌّ وحُزْنٌ وغَمٌّ، فبالإحسان تعيش الأمم في حرية وعدل وتقدم وحضارة ونهضة في كل المجالات، وبالإساءة تعيش الأمم في كَبْتٍ وقَهْرٍ وظُلْمٍ وذُلٍّ واستعبادٍ وتَخَلُّفٍ في كل المجالات ٠٠ والشعوب التي لا تستطيع أن تميز الواقع الذي تعيش فيه، فلا تستطيع أن تميز الحرية والعدل من القهر والظلم، ولا تستطيع أن تميز تقدم أحوالها وتحسن أوضاعها من عيشها في ظلال التخلف والتردي والارتكاس والانتكاس في كل المجالات = هذه شعوب مُضَلَّلَةٌ مُغَيَّبَةٌ بفعل فاعل، مُضَلَّلَةٌ بأبواق الكذب والتزوير وتزييف الحقائق على ألسنة أبواق الإعلام الكذوب الذي يَقْلِبُ الحقَّ باطلا، والباطل حقا، ويَقْلِبُ ما تعيش فيه

البلاد من تَرَدٍّ وتراجع وتخلف في كل المجالات، فيقلبه بلسانه الكذوب ويَعْرِضُهُ أمام الناس على أنه تقدم وإصلاح وازدهار ؛ فيقلب بؤس الشعوب رغدا، وشقاءها سعادة، ومآسيها وأحزانها أفراحا واحتفالات، ويقلب الهزائم انتصارات ٠٠ وبالله العظيم نستدفع البلايا !

ومما يلفت في أسلوب المقابلة أن سيدنا أبا بكر ﷺ جعل "**فَقَوِّمُونِي** " مقابلا لـ " **فَأَعِينُونِي** " ومكافئا له، مع أن الأمر بالإعانة ضده النهي عنها على طريق طباق السلب، ولم يقل سيدنا أبو بكر ﷺ: وإن أسأت فلا تعينوني، لأن نهي الأمة عن إعانة الحاكم المسيء الظالم لا يَلْزَمُ عنه تقويمُه وإصلاحُ خَلَلِه ورَدُّهُ عن إساءته، بل نهيهم عن إعانته يعني مجرد قعودهم عن إعانته وتأييده، وهذا القدر مع صحته وسداده لا يلزم عنه رَدُّهُ عن الإساءة وإصلاح خلله، وسيدنا أبو بكر ﷺ يضع خطة لإصلاح الأمة، والإصلاح لا يكون إلا بتقويم الحاكم إن أساء.

والتقويم في الأصل إصلاح العِوَج الذي يكون في العُود، بحيث يعود مستقيما لا عِوَجَ فيه، وهذا المعنى الأصلي للكلمة نقله سيدنا أبو بكر ﷺ إلى إصلاح إساءة الحاكم برده عن الإساءة إلى الإحسان؛ فيستقيم استقامة العُود، وجرى هذا على طريق الاستعارة التصريحية التبعية التي شبهت إصلاح الحاكم عند إساءته بتقويم العُود الأعوج، ثم حُذِفَ المشبه الذي هو إصلاح الحاكم عند إساءته واستُعِيرَ له المشبهُ به وهو تقويم العود الأعوج، واشتُقَّ من التقويم بمعنى إصلاح الحاكم المسيىء فعل الأمر "**قَوِّمُونِي**" بمعنى أَصْلِحُوا إساءتي، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، التي أخرجت المعنى العقلي وهو إصلاح الحاكم المسيىء في صورة المحسوس وهو تقويم العُود الأعوج بالثِّقاف، وهي آلة عند العرب كانوا يقومون بها العود الأعوج فيستقيم ويصلح لأن يكون سهما، وهكذا الحاكم إذا أقيم عِوَجُه صار كالسهم المستقيم، هذه الصورة المأخوذة من الطبيعة التي كان يألفها العرب ويزاولونها استعارها سيدنا أبو بكر ﷺ لمزيد العناية بإصلاح الحاكم وسَدِّ خَلَلِهِ وعُيوبِه.

وكما جمع أبو بكر ﷺ أمر الراعي في "**فَإِنْ أَحْسَنْتُ ٠٠ وَإِنْ أَسَأْتُ**"، جمع ما يكون من أمر الرعية تجاهه إذا هي أرادت التقدم والنهضة في أمرين لاثالث لهما فقال " **فَأَعِينُونِي ٠٠ فَقَوِّمُونِي**"، فخط بذلك مسئولية الشعب تجاه الحاكم، وهي لا تخرج عن أحد أمرين: الإعانة إن كان محسنا، والتقويم إن كان مسيئا، وقد يجتمع الأمران عندما يخلط الراعي إحسانا وإساءة، فتجمع الرعية له بين الإعانة فيما أحسن فيه والتقويم فيما أساء فيه، وبهذا لا تقتصر مسئولية الشعب على المراقبة فقط، مع أن المراقبة مهمة جدا، بل يراقب ويُعِينُ ويُقَوِّم، وإذا كانت المراقبة مجرد رصد وتدقيق وتفكير وتدبر في هذا الشأن الكبير، شأن قيادة الأمة ؛ فإن الإعانة والتقويم عملان إيجابيان هما المشاركة العملية للأمة في توجيه حركة البلاد وتصحيح مسارها، وتكون الإعانة بالكلمة والنصيحة ونشر الوعي بمايحمله إحسان الحاكم من سداد وإصلاح ونهضة ورقي، وتكون الإعانة بالعمل أيضا على تحقيق الإصلاح والنهضة، والتقويم يكون بالكلمة ويكون بالعمل أيضا.

سيدنا أبو بكر ﷺ يقول للأمة في أول خلافته : إنكم شركاء معي في قيادة الأمة وتوجيه أمرها وإصلاح شأنها، فإذا فتحتُ للأمة باب إحسان وإصلاح وخير ونهضة فأنتم المعينون وأنتم سواعد البناء، وبأيديكم يكون، وبكم يتم، بل لا يكون شيء من ذلك إلا بكم، وهذا يعني أن الأمة إذا خَذَلَتِ الحاكمَ الذي يتوجه توجها صحيحا نحو الإصلاح والنهضة، وتركته بلا مَعُونَة؛ فإن الوِزْرَ عليها، وإن التبعة عليها، والأمةُ حينئذٍ ينبغي إصلاحُها والأَخْذُ على أيديها حتى ترى النور نورا والعدل عدلا والصواب صوابا والإحسان إحسانا ٠٠ وكذا تقويم الأمة إساءة الحاكم هو من باب الإحسان والإصلاح؛ لأنه أَخْذٌ على يديه، وتصويبٌ لخطئه، وإقالةٌ لِعَثْرَتِهِ، وتصحيحٌ لمساره، وهذا الجانب لايقل أهمية عن إعانة الحاكم حين يكون محسنا.

ولم يقل سيدنا أبو بكر ﷺ: فإن أحسنتُ فأَبْقُونِي، وإن أسأتُ فاعْزِلُونِي؛ لأن البقاء في السلطة والعزل منها، أمران يتعلقان بالحاكم، أما الإعانة والتقويم

فأمران يعودان بالنفع والإصلاح المباشر على الأمة، وهذا يعني أن سيدنا ﷺ يوجه هَمَّهُ وعنايته في كلامه إلى ما يَنْبَنِي عليه نَفْعُ الأمة وإصلاحها، لا إلى بقاء الحاكم في السلطة أو عزله منها، فليست المسألة مسألة سلطة، بل قضية أمة تريد الحياة، تريد أن تكون وتقوم وتنهض، وهذا هو الأهم، أما بقاء الحاكم أو عزله ؛ فذلك لا يشغل سيدنا أبا بكر ﷺ وينبغي أن لا يشغل الأمة، إنما يشغلها أن تقوم وتنهض وترتقي في شتى مجالات الحياة، وإن كان ذلك بقيادة فلان أو فلان أو فلان.

ومما يلفت في صياغة الجملتين استخدام أداة الشرط " إنْ" في قوله "**فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي**"، و"إنْ" يكون مدخولُها أمرًا مشكوكًا فيه غير مُحَقَّق ولا مُتَيَقَّن، وهذا مع دلالته على تواضع سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ، فإنه يدل على أن الشعوب ينبغي أن تتوقع من الحاكم الأمرين: الإحسان والإساءة، على درجة واحدة، وإن كان الحاكم مشهودا له بالكفاءة والإحسان؛ فلا تَرْجُحُ عندها كِفَّةُ تَوَقُّعِ إحسانِه على كِفَّةِ تَوَقُّعِ إساءته، حتى تدقق الأمة في مراقبة الحاكم، وتكون عيونها معقودة عليه، ترصد قوله وفعله في المَنْشَطِ والمَكْرَهِ ٠٠ ولاحظ أن الذي قال هذا هو سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ، المشهور بالصدق، المبشر بالجنة على لسان سيد الخلق الصادق المصدوق ﷺ، سيدنا أبو بكر الذي لو وُضِعَ إيمانُ الأُمَّةِ في كِفَّةٍ، وإيمانُه في كِفَّةٍ لَرَجَحَتْ كِفَّةُ أبي بكر ﷺ كما أخبر الرسول ﷺ ٠٠ ومع هذا التفرد الذي لا تجد له مثيلا في الأمة بعد رسول الله ﷺ، نجد سيدنا أبا بكر ﷺ يقول لنا: إن الأمة ينبغي أن تتابعني متابعةَ مَنْ يَشُكُّ في إحسان الخليفة وإساءته ٠٠ وإذا كان سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ يقول هذا ويأمر الأمة أن تقيمه بهذا المقياس، فكيف بمن دونه من الحكام والولاة ؟؟ وكيف يكون الحال في زمان مملوء بالفتن، مملوء بالكذب، مملوء بالنفاق ؟؟

ونبه شيخنا العلامة أبو موسى على أن " استعمال "إن" التي تكون للشرط النادر يفيد معنى أن الإحسان الذي يَنْشُدُهُ رضوان الله عليه عزيزٌ نادر،

وخصوصا في مقام مثل مقامه، ومزالق الطريق كثيرة، ومحاذيره خفية، ودرجات الإحسان العالية المنشودة مطلب عزيز لاينال بالهوينا" "[1]".

وبنيت الجملتان على حذف مفعولى "**أَحْسَنْتُ**" و"**أَسَأْتُ**" تنزيلا لهذا الفعل اللازم منزلة المتعدي؛ لأن المهم ليس هو المفعول أى ليس هو بيان الشيء الذي أحسنه والشيء الذي أساءه، بل المهم أنه متى كان منه إحسان فليعينوه، ومتى كانت منه إساءة فليقوموه، وبهذا يتفرغ الفعل للفاعل ولا ينشغل عَقْلُ المخاطب بشيء سوى الإحسان والإساءة، بصرف النظر عن التفكير في الشيء الذي أحسن فيه الحاكم ما هو ؟ وفي الشيء الذي أساء فيه ما هو ؟ وهكذا يكون تركيز العبارة على المهم، ليس المهم شَغْل المخاطب بأن إحسان الحاكم كان في السياسة أو التعليم أو الاقتصاد ٠٠٠ إلخ، ولا شَغْل عقله بأن الحاكم أساء في أي واحد من هذه الشئون المهمة في حياة الأمة ٠٠ ويحتمل أن يكون الغرض من حذف المفعولين الدلالة على العموم، ففي كل شيء أحسن الحاكم وجب علي الأمة أن يعينوه، وفي كل شيء أساء وجب عليهم أن يقوموه، حذف المفعول يحتمل أن يفيد أيًّا من المعنيين، ولكل منهما وجاهتُه.

وذكر المفعول وهو ضمير المتكلم (الياء) في قوله " **فَأَعِينُونِي** – **فَقَوِّمُونِي**" يدل على معان: منها: التصريح بأن رأس الأمة، خليفة رسول الله ﷺ، محتاج إلى العون والتقويم، وأن كلا من العون والتقويم واقع عليه، كما يقع العون والتقويم على غيره من أفراد الأمة، فهو واحدٌ منهم، يقع عليه ما يقع عليهم.

ومنها: التصريح بأنَّ مَن يُعِينُ ويُقَوِّمُ فإنه يُعِينُ الخليفةَ ويُقَوِّمُهُ، وهذا تشريف لمن يُعِينُ ويُقَوِّمُ، بأن له يدا على خليفة المسلمين ورأس الدولة وأعلى سلطة فيها، والديون قضاء، فرأس الدولة مَدِينٌ له بالعون والتقويم، وهو مَدِينٌ لرأس الدولة بما فتح من الإحسان وشق من السبل وعالج من أمر الدولة في

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري د محمد أبو موسى ص ٧٤٦ ٠

سياستها القوية وتعليمها القوي واقتصادها القوي وجيشها القوي وصناعتها القوية ٠٠ إلخ.

وحُذِفَ الجار والمجرور المتعلق بالفعلين "**فَأَعِينُونِي – فَقَوِّمُونِي**" والتقدير فأعينوني على ما أحسنت فيه وقوموني فيما أسأت فيه، وهذا المحذوف معلوم لا يُحْتَاجُ إلى ذكره والتصريح به، حتى لاتطول العبارة بما يفهمه العقل منها فَهْمَ ضرورة ؛ وتَرْكُ مساحة للعقل ليفكر فيما لم يُذْكَرْ في النص أمر مهم جدا، وتربية للذائقة البيانية على الكد في سبيل الوصول إلى المعاني والأسرار، ولو كان البيان كله صريحا مكشوفا لكان كلاما مغسولا.

وقَدَّمَ سيدنا أبو بكر ﷺ احتمال الإحسان على احتمال الإساءة فقال" **فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي** " رغبةً في الإحسان وتفاؤلا ومسارعةً بذكره ؛ لأنه مُحَبَّبٌ إلى النفوس، وفي تقديمه نَشْرٌ لرُوْحِ الأمل والتفاؤل في الأمة لتستبشر بالخير القادم وبالفجر الصادق وبنور العدل الذي يحمي الأمة ويصونها وينفعها ويرفعها، وما أحوج النفوس إلى بارقة أمل تعينها على الكدح في مسيرة الحياة وتجدد نشاطها ورغبتها ٠

بقي شيء في بناء الجملتين لا تخطئه العين، وهو اتحادُ حَذْوِهما، وبناؤُهما على هيكل هندسي واحد لا يَنْخَرِمُ منه شيء، بحيث يمكن وضع كل حرف وكل كلمة في الجملة الثانية بإزاء أختها التي تساويها وتَعْدِلُها في الجملة الأولى، وتأمَّلْ :

فَإِنْ / أَحْسَنْتُ / فَأَعِينُونِي

وَإِنْ / أَسَأْتُ / فَقَوِّمُونِي

فَـ " إِنْ " هي " إِنْ "

و" **أَسَأْتُ** " بإزاء " **أَحْسَنْتُ** "

و" **فَقَوِّمُونِي** " بإزاء " **فَأَعِينُونِي** "

وهذا الاتحاد يؤكد ما سبق من أن أبا بكر ﷺ يعرض الاحتمالين عرضا متكافئا بحيث لا تَرْجُحُ كِفَّةُ الإحسانِ كِفَّةَ الإساءة من حيث توقُّعُ كُلٍّ منهما

من الحاكم على درجة واحدة ٠٠ وفي هذا الاتحاد أيضا دلالة على مزيد عناية أبي بكر ﷺ بهذا المعنى الذي يُرِيدُ له أن يَشِيعَ ويَثْبُتَ في النفوس بهذه الصياغة التي تُرَسِّخُهُ في الذاكرة وتَنْقُشُهُ فيها وتُعِينُ على حفظه وتذكُّرِه بما فيها من أُلْفَةٍ وأُنْسٍ بين الألفاظ والمعاني ؛ فكُلُّ كلمةٍ مُمْسِكَةٌ بأختها المشبهة لها في المبنى وإن كانت ضدا لها في المعنى، فأحسنت وأسأت أختان في الصياغة رضيعتا لِبانٍ رفيقتا دَرْبٍ تُمْسِكُ إحداهما بالأخرى، ويا بُعْدَ ما بينهما من حيث المعانى ؛ فالإحسان جنة الدنيا والآخرة، والإساءة نار الدنيا والآخرة، وكذا يقال في " فأعينوني " و" فقوموني".

إن الأمة عند تولية الخليفة أو الحاكم أمامها ستة خيارات ثلاثة، منها تجمع مواقفها عند إحسان الحاكم، وثلاثة مثلها تجمع مواقفها عند إساءة الحاكم، فخياراتها عند إحسان الحاكم هي:

١- أن تعينه على إحسانه.

٢- أن تخذله وتتخلى عنه وتتركه وحيدا فلا هي معه ولا هي عليه.

٣- أن تقف ضده وتكون إلْبًا عليه.

والصالح النافع للأمة من هذه الخيارات هو الخيار الأول لا غير، وهو أن تعين الأمة الحاكم إن أحسن، أما التخلي عنه فهو موقف سلبي؛ لأنه يخذله ويتركه وحيدا، وأما الوقوف ضده مع أنه محسن فهذا هو الهدم والإفساد؛ ولذا اختار سيدنا أبو بكر ﷺ الخيار الأول لأنه الخيار الصالح النافع للأمة.

وخيارات الأمة عند إساءة الحاكم ثلاثة:

١- أن تعينه على إساءته.

٢- أن تتركه وحيدا فلا هي معه ولا هي عليه.

٣- أن تقفَ ضده وتُقَوِّمَه.

والصالح النافع للأمة من هذه الخيارات هو الخيار الثالث لا غير، وهو أن تقفَ ضد الحاكم إن أساء وتُقَوِّمَه، أما إعانته على إساءته فتلك الحالقة التي

تَحْلِقُ الأُمَمَ وتُبِيْدُها، وأما أن تتركه وتسكت فلا هي معه ولا هي عليه، فتلك سلبية واضحة فاضحة تجر الأمة إلى مستنقع وخيم.

وبناء على هذا نجد أن سيدنا أبا بكر ﷺ اختار الصالح النافع للأمة في جانبى الإحسان والإساءة، وتلك سياسة رشيدة ترتقي بها الأمم وتعلو؛ فرضي الله عن سيدنا أبي بكر وأرضاه وأكرمه كما أكرم الأمة بهذا التوجيه السديد وتلك السياسة الرشيدة، وخط لها السبيل الأقوم إذا كانت تريد الحياة الكريمة.

مع روايات الجملتين :

وقفت لهاتين الجملتين من خطبة أبي بكر الصديق ﷺ على عشر روايات، هي:

١- **فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي** "[١]".

٢- **فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَنَا أَسَأْتُ فَسَدِّدُونِي**"[٢]".

٣- **فإن أنا أحسنت فأعينوني، وإنْ زِغْتُ فقوموني** "[٣]".

٤- **فإذا أحسنت فأعينوني، وإن أنا زِغْتُ فقوموني**"[٤]".

٥- **فَإِنْ أَحْسَنْتُ؛ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ زِغْتُ فَقَوِّمُونِي** "[٥]".

٦- **فَإِنِ اسْتَقَمْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ زِغْتُ فَقَوِّمُونِي** "[٦]".

٧- **فَإِنِ اسْتَقَمْتُ فَاتَّبِعُونِي، وَإِنْ زِغْتُ فَقَوِّمُونِي** "[٧] ".

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٥٧ السيرة النبوية لابن كثير ٤/ ٤٩٣ الشمائل للترمذي جمع الوسائل في شرح الشمائل ٢/ ٢٢١ نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ١٩/ ٤٢ كتاب الردة للواقدي ص ٤٨ تاريخ الطبري ٣/ ٢١٠ الكامل في التاريخ لعز الدين بن الأثير ٢/ ١٩٢ ، البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٢٦٩ .

(٢) الزهد لأبي داود ص ٥٦ .

(٣) موطأ مالك ت الأعظمي ١/ ١٦١ .

(٤) تاريخ الخلفاء ص ٥٩ .

(٥) عيون الأخبار (٢/ ٢٥٥ .

(٦) جامع معمر بن راشد باب لا طاعة في معصية ١١/ ٣٣٦ برقم ٢٠٧٠١ .

(٧) المعجم الأوسط ٨/ ٢٦٧ ، من اسمه منتصر ، برقم ٨٥٩٧ .

٨- فَإِنْ ضَعُفْتُ فَقَوِّمُونِي، وَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي "[١]".

٩- فَإِنْ أَصَبْتُ فَاحْمَدُوا اللَّهَ، وَإِنْ أَخْطَأْتُ فَقَوِّمُونِي "[٢]".

١٠- فإن رأيتموني على حقّ فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني"[٣]".

وتبين من هذه الروايات أنها لم تدع عنصرا من العناصر التي تكونت منها الجملتان إلا وفيها رواية أو أكثر على النحو الآتي:

أولا: اتفقت الروايات كلها على التعبير بأداة الشرط "**إنْ**" في الجملتين الشرطيتين، إلا رواية واحدة، هي الرواية الرابعة:

٤- " فإذا أحسنت فأعينوني، وإن أنا زِغْتُ فقوموني"

وهي رواية انفرد بها – فيما وقفت عليه – الإمام السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء، عبرت هذه الرواية بـ " إذا " في جانب إحسانه ﷺ، وعبرت بـ " إنْ " في جانب الزَّيْغ، والتعبير بـ "إذا" يفيد أن إحسانه ﷺ أمر محقق ومتيقن؛ ومناقب الصديق ﷺ ومكانته من رسول الله ﷺ وتاريخُه وجهادُه وكونُه من العشرة المبشرين بالجنة ٠٠ إلخ، كلها أمورٌ تُعْلِي تَوَقُّعَ إحسانِه على تَوَقُّعِ زَيْغِهِ وإساءتِه؛ ولذا فالتعبير بـ " إذا " نازعٌ إلى هذا كُلِّهِ، ومُؤَيَّدٌ بهذا كله، ولكن التعبير بـ " إنْ " في الجملتين – كماتفقت عليه الروايات إلا هذه الرواية المفردة – يفيد بجانب دلالته على تواضع أبى بكر ﷺ وهضمه لنفسه أن أبا بكر ﷺ يريد من الأمة أن تنظر إلى الحاكم عند توليه نظرةً متوازنة متكافئة تتوقع منه الإحسان بقدر ما تتوقع منه الإساءة، وبنفس الدرجة، ودون أن تَرْجِحَ إحدى الكِفَّتَينِ أُخْتَها، حتى ولو كان الحاكم أبا بكر الصديق صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله

---

(١) جامع معمر بن راشد باب لا طاعة في معصية ١١/ ٣٣٦ برقم ٢٠٧٠٢ ٠

(٢) مسند البزار البحر الزخار ١/ ١٨٠، ما روى محمد بن أبي بكر عن أبيه أبي بكر برقم ١٠٠ ٠

(٣) العقد الفريد ٤/ ١٤٩،وجمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة ١/ ١٨٠ ٠

معنا، ومن له عند الرسول ﷺ يَدٌ يكافئه الله تعالى بها ٠٠ إلى آخر مناقبه ﷺ التي تملأ أسفارا، ووراء هذا دلالة على أن تحتاط الأمة وتعتدل في نظرتها إلى الحاكم وأن تتوقع منه الإساءة كماتتوقع منه الإحسان، فتكون عيونها معقودة على قوله وفعله وعمله ومَنْشَطِهِ ومَكْرَهِهِ وما يُقَدِّمُ لهذه الأمة، بقدر ما تكون عيونها معقودة على مكانته وسابقته ومناقبه وتاريخه وجهاده وحسن بلائه، حتى لاتعيش الأمة في أحلامٍ وَرْدِيَّةٍ وآمال عريضة وترتفع مستويات طموحها وآمالها وأحلامها وتوقعاتها في مستقبلها، ثم تُصْدَم ويصيبها الإحباط والاكتئاب من الواقع المُرّ الذي قد تراه من الحاكم بعد ولايته وجلوسه على الكرسي واعتلائه سُدَّة الحكم، وهذا واقعٌ مُرٌّ عشناه في زماننا، ولم نَأْلَفْ غيره، حتى استقر في نفوسنا أن الحاكم قبل الولاية شيء وبعد الولاية شيء آخر، وبالله العظيم نستدفع البلايا.

ثانيا: اتفقت الروايات كلها على ذكر فعل الشرط بعد أداة الشرط مباشرة وبدون فاصل، إلا الروايات الثلاث (الثانية – والثالثة – والرابعة) :

٢- فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي وَإِنْ أَنَا أَسَأْتُ فَسَدِّدُونِي.

٣- فإن أنا أحسنت فأعينوني، وإن زغت فقوموني.

٤- فإذا أحسنت فأعينوني، وإن أنا زغت فقوموني.

ففي الروايات الثلاث فُصِلَ بين "إنْ " وفعل الشرط بضمير المتكلم "أنا" وتقدم الضمير وهو المسند إليه على الخبر الفعلي "أحسنت – أسأت – زغت"، وهذا التقديم يفيد قصر الإحسان والإساءة والزيغ عليه وحده قصرا قائما على الادعاء والمبالغة لا على التحقيق؛ فما من أحد إلا وهو يُحْسِنُ ويُسِيءُ ويَخْلِطُ إحسانًا وإساءةً إلا النبي المعصوم؛ ولكن أبا بكر ﷺ يريد أن يضخم إحسان الحاكم وإساءته واستقامته وزيغه لما ينبنى على ذلك من صلاح الأمة واستقامتها وسدادها ورقيها وحضارتها، أو فساد الأمة وانحرافها وضلالها وتخلفها؛ ولذا بالغ فجعل إحسان الحاكم كأنه الإحسان الذي لا إحسان سواه، وإساءته كأنها الإساءة التي لا إساءة غيرها، لأن إحسانه ينبني عليه إحسان

أحوال الأمة، وإساءته ينبني عليها إساءة أحوال الأمة وتدميرها وتخريب البلاد والإضرارا بالعباد.

ثالثا: اتفقت ست من الروايات العشر على التعبير في فعل الشرط في جانب الإحسان بالفعل " **أَحْسَنْتُ** "، وهي :

١- فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي.

٢- فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَنَا أَسَأْتُ فَسَدِّدُونِي.

٣- فإن أنا أحسنت فأعينوني، وإن زِغْتُ فقوموني.

٤- فإذا أحسنت فأعينوني، وإن أنا زِغْتُ فقوموني.

٥- فَإِنْ أَحْسَنْتُ؛ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ زِغْتُ فَقَوِّمُونِي.

٨- فَإِنْ ضَعُفْتُ فَقَوِّمُونِي، وَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي.

فالفعل "أحسنت" هو الفعل الغالب على الروايات؛ لما فيه من عموم؛ فالإحسان كلمة عامة يدخل فيها كثير من المعاني، ثم اختلف التعبير عن هذا الفعل في أربع روايات، فوضع في مكانه "**اسْتَقَمْتُ**" في الروايتين السادسة والسابعة:

٦- فَإِنِ اسْتَقَمْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ زِغْتُ فَقَوِّمُونِي.

٧- فَإِنِ اسْتَقَمْتُ فَاتَّبِعُونِي، وَإِنْ زِغْتُ فَقَوِّمُونِي.

ووضع في مكانه الفعل "**أَصَبْتُ**" في الرواية التاسعة:

٩- فَإِنْ أَصَبْتُ فَاحْمَدُوا اللَّهَ، وَإِنْ أَخْطَأْتُ فَقَوِّمُونِي.

ووضع في مكانه الفعل "**رأيتموني**" في الرواية العاشرة:

١٠- فإن رأيتموني على حقّ فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني.

وأفعال الشرط الثلاثة "استقمت – أصبت – رأيتموني " تفسير للفعل "أحسنت"، فكل واحد منها من الإحسان، فالاستقامة إحسان، والإصابة إحسان، ورؤيتهم له على الحق إحسان، فكلمة الإحسان كالسماء تظل هذه المعاني التي تَسْبَحُ في جَوِّها، وكل فعل منها يكشف جانبا من الإحسان وصورة من صوره، وإن كانت الاستقامة أوسع هذه الثلاثة دائرة لأنها تشمل كل عمل صالح؛ ولذا

اكتفى بها ربنا بعد الإيمان في قوله جل وعلا " **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**" (فصلت٣٠)، "**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**" (الأحقاف١٣)، ولكن الإحسان أعلى درجة؛ فرب مستقيم على ما أمره الله تعالى به لم يَرْقَ فيما استقام فيه إلى درجة الإحسان، وهى أعلى من الإسلام والإيمان، على أن هذه الأفعال الثلاثة "استقمت – أصبت – رأيتموني على حق" متآخية متلائمة، فكلها من أسرة واحدة، أسرة الصلاح والخير والرقي والنهضة والسعادة والحياة الحرة الكريمة، فالإصابة في القول والفعل والعمل والسلوك استقامة وإحسان، واتباع الحق والعدل وتحريه والحرص على تطبيقه في الأمة إصابة وسداد واستقامة وإحسان، وهكذا تتلاقى هذه الأفعال ويفسر بعضها بعضا ويشد بعضها بعضا لأنها خرجت من رحم واحد، رحم الإحسان الذى يملأ الحياة عدلا ورحمة ورقيا وتقدما ونهضة.

رابعا: اتفقت ثمان من الروايات العشر في التعبير في جواب الشرط في الجملة الأولى بالفعل "**فَأَعِينُونِي** "، وانفردت روايتان فقط في التعبير بـ "**فَاتَّبَعُونِي**" "**فَاحْمَدُوا اللَّهَ**":

٧- **فَإِنِ اسْتَقَمْتُ فَاتَّبَعُونِي، وَإِنْ زِغْتُ فَقَوِّمُونِي.**

٩- **فَإِنْ أَصَبْتُ فَاحْمَدُوا اللَّهَ، وَإِنْ أَخْطَأْتُ فَقَوِّمُونِي.**

والتعبير بـ "**فَأَعِينُونِي**" تعبير بالفعل العام الذي يشمل الاتباع وحمد الله جل وعلا، ففي اتباع الحاكم في إحسانه إعانة له ؛ لأن تكثير سواد أهل الحق والإحسان باتباعهم وإعلان الولاء لهم وتأييدهم يتجه بالبلاد نحو الاتحاد وعدم التفرق، وليس مع الاتحاد إلا التقدم والإصلاح والرقي والحضارة ؛ لأن الفُرْقَةَ ضَعْفٌ ووَهَنٌ وتَشَتُّتٌ، وقد أَمرَنا ربُّنا بالاتحاد ونَبْذِ الفُرقة والاختلاف فقال جل وعلا " **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**" (الأنبياء٩٢)، "**وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**" (المؤمنون٥٢)، وقال جل وعلا في النهي عن التنازع والاختلاف والفرقة والتشتت "**وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَتَنَازَعُواْ**

فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ " (الأنفال٤٦)، على أن المقصود بقول أبي بكر ﷺ "**فَاحْمَدُوا اللَّهَ**" ليس مجرد تحريك اللسان بالحمد لله فقط؛ بل حمد الله تعالى بالفعل والعمل أيضا ؛ حتى تتحرك الأمة إلى الأمام وتسير قاطرة التقدم بالبلاد نحو الأفضل في كل ميادين الحياة ؛ كما أن الاتباع في قوله ﷺ "**فَاتَّبَعُونِي**" ليس المراد منه أن يسيروا معه وخلفه فقط ويعلنوا تأييدهم له؛ لأن هذا وإن كان مظهره حسنا وصورته مرغوبة محبوبة إلا أن الاتباع يعني السمع والطاعة والمحبة وأن يقدموا من الأعمال ما هو رِدْفُ ذلك وتاليه، وأن يكونوا معه سواعد الدهر وبناة النهضة ومنابع الخير التي ترتقي بها البلاد ويسعد بها العباد، وإذا كانت هذه المعاني الرادفة أو المعاني الثواني هى المرادة على سبيل الكناية من وراء التعبير بـ "**فَاتَّبَعُونِي**" "**فَاحْمَدُوا اللَّهَ**"، فإن الرواية الأم التي اتفقت عليها ثمان من الروايات صَرَّحَتْ بهذا المعنى المكني عنه في فعل الأمر" **فَأَعِينُونِي**"، وللتصريح هنا حلاوته ومذاقته العالية التي تصارح الأمة وتكاشفها وتطلب منها العون طلبا صريحا حتى تكون مسؤلية الأمة في إعانة الحاكم المحسن المصلح العادل واضحة من أول الأمر ومن النَّأْنأَةِ الأولى عند تولى الخلافة والحكم والإمارة، بل عند تولي المسئولية أيا كانت صغيرة أو كبيرة في كل شأن من شئون الأمة دَقَّ أو جَلَّ، وهذا هو السبيل لمن أراد الحياة.

خامسا: اختلفت الروايات في التعبير عن فعل الشرط في الجملة الثانية بالفعل **(أَسَأْتُ – زِغْتُ – ضَعُفْتُ – أَخْطَأْتُ – رأيتموني على باطل)**، والفعل "**أَسَأْتُ**" يعمها ويشملها، فضعف الحاكم في حكمه وفي قراراته وفي إعداد جيشه وإعداد شعبه إساءة ؛ لأن الحاكم ينبغي أن يكون قويا في ذلك كله حتى يكون مهابا في عيون أعدائه، مهابا في عيون أصحاب السطوة والنفوذ في شعبه، يستطيع أن يأخذ حق الضعيف من القوى، وخطأ الحاكم إساءة؛ لأن الحاكم الصالح المصلح ينبغي أن لا يُقْدِمَ على عمل إلا بعد مشورة ودراسة وتفكير وتَدَبُّر لعواقبه ومدى تحقيقه لمصلحة الأمة ودرئه المفسدة عنها، ووقوع الحاكم في

الباطل إساءة؛ لأن الحاكم ينبغي عليه تحري الحق واتباعه وإشاعته في الأمة؛ وبهذا نرى أن الفعل "**أَسَأْتُ**" مهيمن على أخواته وذَوِي رَحِمِهِ من الأفعال المروية في مكانه، والتي هي كلها من واد واحد، كلها من عائلة الإساءة والتقصير، وهذه الطريقة هي نفسها الطريقة في اختيار فعل الشرط "أحسنتُ" في الجملة الشرطية الأولى، فهو فعل عام يضم جناحيه على أخواته وذوي رحمه، وهي الأفعال "استقمت – أصبت – رأيتموني على حق"، وبهذا يتحد حذو الكلام في أكثر الروايات باختيار الفعل العام الذي يضم جناحيه على ذوي رحمه وأفراد عائلته في الجملتين الشرطيتين، وهذا تناسب وتآخ وتراحم في بناء الكلام يقوي وشائجه ويشد أَزْرَهُ؛ لأن الإحسان يحب أخواته ويناديها، فإذا سلك الحاكم سبيل الإحسان فقد استدعى هذه العائلة الكريمة والشجرة الطيبة ونشرها في الأمة، عائلة الاستقامة والإصابة والحق ؛ وهذا إغراء بضرورة الحذر والتدقيق من الحاكم فيما يأتي لأن فعله يتبعه أفعال واختياره يتبعه ما يتبعه في الأمة، وبالعكس نجد أن الإساءة تجر أخواتها وتناديها، فإذا أساء الحاكم فقد استدعى هذه العائلة الكريهة والشجرة الخبيثة وأغرى بها الأمة، عائلة الزيغ والضعف والخطأ والباطل ؛ وهذا إغراء بضرورة الحذر والتدقيق من الحاكم فيما يأتي لأن فعله يتبعه أفعال واختياره يتبعه مايتبعه في الأمة.

والتعبير بهذه العائلة الكريهة "**أَسَأْتُ – زِغْتُ – ضَعُفْتُ – أَخْطَأْتُ – رأيتموني على باطل**" ينص نصا قاطعا على أن رأس الدولة تكون منه الإساءة والزيغ والضعف والخطأ والوقوع في الباطل، حتى وإن كان أعلى الناس رتبة في هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ، ومن العشرة المبشرين بالجنة، وكان إيمانه يَعْدِلُ إيمان الأمة كلها؛ لأنه بشر غير معصوم من الخطأ، وإنما العصمة للأنبياء؛ وهذا المعنى المهم صرح به سيدنا أبو بكر ﷺ في رواية لهذه الخطبة عند ابن جرير الطبري، قال سيدنا أبو بكر ﷺ "يَاأَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا مِثْلُكُمْ، وَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلَّكُمْ سَتُكَلِّفُونَنِي مَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُطِيقُ، إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ وَعَصَمَهُ مِنَ الآفَاتِ، وَإِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٌ، فَإِنِ

اسْتَقَمْتُ فَتَابِعُونِي، وَإِنْ زِغْتُ فَقَوِّمُونِي، وإن رسول الله ﷺ قُبِضَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَطْلُبُهُ بمظلمة ضربه سَوْطٍ فَمَا دُونَهَا، أَلا وَإِنَّ لِي شَيْطَانًا يَعْتَرِينِي، فَإِذَا أَتَانِي فَاجْتَنِبُونِي، لا أُؤْثِرُ فِي أَشْعَارِكُمْ وَأَبْشَارِكُمْ ""[1]"، تأمل قوله "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ وَعَصَمَهُ مِنَ الآفَاتِ"، يريد أن الرسول ﷺ معصوم أما هو فليس بمعصوم؛ ولذا تكون منه الإساءة والزيغ والخطأ، ورحم الله تعالى سيدنا أبا بكر ورضي عنه وأرضاه ؛ فإن تصريحه بهذا كان مهما جدا وضروريا جدا؛ لأنه أول من ولي أمر المسلمين بعد رسول الله ﷺ، فكان لابد من التصريح بكونه بشرا يصيب ويخطىء، أما الرسول ﷺ وبأبي هو وأمي فكان معصوما ؛ ولهذا أيضا صَرَّحَ بهذه الأفعال " **أَسَأْتُ – زِغْتُ – ضَعُفْتُ – أَخْطَأْتُ – رأيتموني على باطل**".

سادسا: اتفقت الروايات في التعبير في جواب الشرط في الجملة الثانية "**وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي**" على التعبير بالفعل "**قَوِّمُونِي**"، وجاء التعبير بالفعل "**سَدِّدُونِي**" في الروايتين الثانية والعاشرة:

٢ – فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَنَا أَسَأْتُ فَسَدِّدُونِي.

١٠ – فإن رأيتموني على حقّ فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني.

وسبق أن التقويم فيه استعارة تبعية أخرجت المعنى العقلي في صورة محسوسة صورة العود الأعوج الذي يُقَوَّم بالثِّقَافِ فيَحْسُنُ الانتفاع به، وتقويم الحاكم يكون ببيان إساءته وبيان طريقة تلافيها ثم تحويلها إلى إصلاح وإحسان، ولا بد من هذا التقويم ومن هذه المراجعة ومن هذا التصويب لأخطاء الحكام حتى يكفكف ذلك من غلوائهم فلا يغتروا بأنهم على رأس الحكم، وأن الله تعالى ملكهم أمور العباد والبلاد. وأما الفعل "**فَسَدِّدُونِي**" في رواية "**وَإِنْ أَنَا أَسَأْتُ فَسَدِّدُونِي**" ورواية "**وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني**"، فهي ليست ببعيدة عن رواية " **فَقَوِّمُونِي**"؛ بل التقويم والتسديد من واد واحد؛ لأن التقويم إصلاح للعود

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٢٤ .

الأعوج بالثقاف، والتسديد تسديد السهم، والعود بعدما يُقَوَّمُ بالثِّقَافِ يصير سهما يُسَدَّدُ في نحور الأعداء، فلا ريب أن التقويم قبل التسديد؛ لأن تسدسد السهم لا يكون إلا بعد إصلاح العود وتهذيبه.

قول سيدنا أبي بكر ﷺ:

" **الصِّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ** "

هاتان جملتان ممسكتان بحُجَزِ الجملتين السابقتين؛ ومتناسبتان معهما تناسبا ظاهرا؛ لأن الصدق إحسان فهو تطبيق لقوله "فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي"، والكذب إساءة فهو تطبيق لقوله "وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي"، وكما تناسبت الجملتان مع اللتين قبلهما من حيث تداعي المعاني ونداء بعضها على بعض، فإنهما تناسبتا معهما في طريقة حَذْوِ الكلام وبنائه، فالجملتان السابقتان قامتا على أسلوب المقابلة فقوبل "أحسنت" بـ"أسأت"، وقوبل "فأعينوني" بـ "فقوموني"؛ وكذا قامت هاتان الجملتان على أسلوب المقابلة بين "الصِّدْق" و"الْكَذِب" وبين "أَمَانَة" و "خِيَانَة"؛ وبهذا يتعانق الكلام ويتآخى ويَشُدُّ بعضُه أَزْرَ بعض.

وقوله "الصِّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ" لو وضع في كل شيء لأصلحه، ولو صار شعارا لأي أمة لأصلحها، ولو صار شعارا للحياة كلها لأصلح الحياة كلها، فالصدق في السياسة مصلح للسياسة، والصدق في التعليم مصلح للتعليم، والصدق في الاقتصاد مصلح للاقتصاد، والصدق في الصناعة مصلح للصناعة ٠٠ وهكذا، والكذب في السياسة خيانة في السياسة، والكذب في التعليم خيانة في التعليم، والكذب في الاقتصاد خيانة في الاقتصاد، والكذب في الصناعة خيانة في الصناعة ٠٠ وهكذا، والأمم النظيفة الراقية المتحضرة هي الأمم التي تلتزم الصدق وتقوم على الصدق وترفع قدره وتُعْلِي مَنَارَهُ، والأمم المتخلفة هي الأمم التي تعيش على الكذب وتتنفس الكذب وتحترم الكذابين وترفع قدرهم وتُعْلِي مَنَارَهُم، وانْظُرْ حولَكَ تَرَ صِدْقَ ذلك وصحتَه وسَدَادَه.

والأمانة أن ترد الشيء إلى صاحبه كما استأمنك عليه، وخيانة الأمانة تضييعها وإتلافها أو ردها ناقصة، وأخبر سيدنا أبو بكر ﷺ عن الصدق بأنه أمانة لأن الصدق تأدية الشيء كما هو دون زيادة أو نقص، فالصدق في العلم أن تقول ما تعلم دون زيادة أو نقص؛ إذ الكلمة أمانة، والمجلس أمانة، والصدق في كل شيء لزوم جادته وإعطاء كل شيء حقه ومستحقه دون زيادة أو نقص، فمَن غَيَّرَ الحقيقة والواقع فهو كاذب، ومن قال جانبا منها وكتم جانبا فقد نَقَصَ من الأمانة بقدر ما كتم من الحقيقة ٠٠ وهكذا، والخيانة تضييع الأمانة، والكذب تضييع للحق وإخبار بما هو مخالف للحق والحقيقة والواقع، وتلك خيانة خان بها المتكلم حق الكلمة عليه، وخان نفسه، وخان أمته؛ ولهذا أخبر ﷺ فقال " والكذب خيانة " ٠٠ وهذا الأسلوب أخرج الصدق والكذب وهما من المعاني الجائلة العقول في صورة محسوسة، صورة أمانة من مال أو متاع، وُضِعَتْ عند إنسان، فحفِظها أو ضيعها، فمَن حفِظ الأمانة فهو صادق مع نفسه ومع دينه ومع أمته، ومن ضيع الأمانة فهو خائن لنفسه ولدينه ولأمته.

وإخبار سيدنا أبي بكر ﷺ بهذا في أول خطبة له يرسم سبيله ومنهجه في قيادة الأمة، وهو المنهج الذي يلزم الصدق، ويبتعد عن الكذب، ويتخذ هذا شعارا في كل شيء، ومقياسا لكل شيء، وهذا نابع من شيم سيدنا أبي بكر ﷺ وسجاياه، فهو الذي لزم الصدق في حياته قبل أن يجعله شعارا ومنهاج حكم وإصلاح للأمة؛ هو الذي لقبه الرسول ﷺ بـ "الصِّدِّيق"، ولا شك في أن حِرْصَ الحاكم على لزوم الصدق والابتعاد عن الكذب وإشاعة ذلك في الأمة وجعله منهج حياة هو سبيل النجاة والرقي والتقدم، كما أن كذب الحاكم وإقامته حكمه وسلطانه على الكذب إغراء للأمة بالكذب، وما دخل الكذب في شيء إلا أفسده، وتَخَلُّفُ الأمم وراءه الكذب وقلة الصدق وأهله، وانتشار الكذب وأهله؛

ومن أشراط الساعة أن تُرْفَعَ الأمانة "حَتَّى يُقَالُ: لَقَدْ كَانَ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلٌ أَمِينٌ ""[1]"، كما أخبر المعصوم ﷺ.

الصدق مكاشفة للأمة، والكذب تضليل للأمة، والإعلام الصادق أداة للتقدم، والإعلام الكاذب مِعْوَلُ هدم للأمة، ولا سبيل للرقي والتقدم إلا بالحاكم الصادق والمعلم الصادق والوزير الصادق والمسئول الصادق والفلاح الصادق والصانع الصادق والتاجر الصادق، ومجلس العلم الصادق، ومجلس الحكم الصادق، ومجلس الشورى الصادق، ومجلس القضاء الصادق، ومجلس الصلح الصادق ٠٠٠ إلى آخره.

وهذا هو السبيل لمن أراد أن يحيا.

قول أبي بكر الصديق ﷺ:

"**الضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ لَهُ حَقَّهُ، وَالْقَوِيُّ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ**".

عَرَّفَ الصِّدِيقُ ﷺ كلا من "الضعيف" و "القوي" بـ"أل" للدلالة على العموم، فكل ضعيف في الأمة قوي عنده حتى يأخذ له حقه من القوي، وكل قوي في الأمة ضعيف عنده حتى يأخذ منه الحق للضعيف، ووراء هذا دلالة على عدم المحاباة لأحد من الضعفاء أو الأقوياء على حساب أحد، وأن أفراد الأمة أمام الحاكم سواسية كأسنان المشط، فليس هناك محاباة لأي قوي، وليس هناك محاباة لأي ضعيف، التعريف بالألف واللام هنا يهمس بهذه الدلالة السخية التي تقول لرأس الدولة ولكل مسئول لا تَحَابِ قويا لِعِلَّةٍ أو لغرضٍ في نفسك أو لخوفٍ منه ؛ فتترك أن تأخذ منه الحق للضعيف؛ فكل قوي بغى على ضعيف ينبغي أن تطبق عليه هذا الأصل الذي أَصَّلْتَهُ وهذا الحُكْمَ الباتَّ الذي أبرمتَه ؛ حتى يعتدل ميزان العدل، وتقوم بين الناس بالقسط، وكذلك كل

(١) شعب الإيمان للبيهقي في المقدمة ٣٥ الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها ٧/ ٢١٣ حديث رقم ٤٨٩٠ ٠

ضعيف ينبغي أن تأخذ له حقه من القوي، فلاتأخذ حق ضعيف لقرابته أو لأنك تعرفه أو لأنه من قرابة فلان ٠٠ إلخ، وتترك حق ضعيف آخر لأنه ليس قريبا لك أو لا تعرفه أو لأنه ليس من قرابة أحد من المقربين إليك ٠٠ إلخ ؛ فهذا ظلم؛ والظلم ظلمات يوم القيامة.

ويحتمل أن تكون "أل" في (الضعيف – والقوي) للدلالة على كمال الصفة في الموصوف، أي الضعيف الذي اتصف بكل صفات الضعف حتى صارت صفة الضعف تامة فيه، والقوي الذي اتصف بكل صفات القوة حتى صارت صفة القوة تامة فيه؛ ووراء هذا معنى سخي، وهو أن سيدنا أبا بكر ﷺ يرفع الضعيف إلى القوة بعدما كان قد بلغ في الضعف غايته وبلغ في الاستكانة والاستسلام غايته، وبلغ في الخَوَرِ وغياب النصير الغاية، وبلغ في الاستعباد والاستقواء عليه غاية المبلغ، حتى استخفه القوي وبلغ به الاستخفاف والاستهانة المنتهى، سيدنا أبو بكر ﷺ يرفع هذا الضعيف من تلك الأوحال والمستنقعات العفنة المظلمة وتلك الحياة التى يكون الموتُ خيرًا منها ويكون باطن الأرض خيرا من ظاهرها، يرفع الضعيف فيصبح عنده قويا ؛ لم يكتف سيدنا ﷺ بأن ينتشله من أوحال الضعف وظلمات الاستعباد ومعاطن الاستخفاف به والاستقواء عليه، بأن يمحو عنه ظلمات الضعف والاستعباد، بل جعله مساويا للقوي في القوة، ثم جعل القوي الظالم ضعيفا، ووضع الضعيف في موضع القوي، وأنزل القوي من علياء طغيانه وجبروت ظلمه ووَضَعَه موضع الضعيف ٠٠ وهذا شيء أكبر من أن تبلغ الكلمة حق وصفه، فكيف بتطبيقه وتنزيله على واقع الحياة وعلى الدنيا التي يأكل بعضها بعضا ٠٠

وهذا القوي الظالم الذي تحقق بصفات القوة حتى بلغ فيها تمام الصفة، يُنْزِلُه سيدنا أبو بكر من جبروت قوته وظلمه وعتوه وبغيه، ويأخذ على يديه ويأطره أطرا، فلا يمنعه من الظلم والبطش بالضعيف فحسب، بل ينزع عنه صفة القوة نزعا، ويجرده منها تجريدا، حتى يذوق ما أذاقه الضعيف ويشعر بما شعر به

الضعيف ويقاسي ما قاساه الضعيف، وهذا تأديب للظالم وتهذيب وتربية، يكاد يبلغ في النَّصَفَة مبلغ رد الحق إلى الضعيف المظلوم ٠٠ ولا يقدر على مراكز القُوَى في المجتمع وعصابات الظلم إلا الحاكم المقتدر الصادق الواثق بربه؛ وإلا ابتلعته هذه العصابات وأكلته أكلا مع الضعيف الذي أراد أن ينصفه وجعلته خبرا من الأخبار ٠٠ ولله در أبي بكر ﷺ.

ويلاحظ في قول أبي بكر ﷺ "وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي – وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي " أنه بعدما عَرَّفَ الضعيفَ والقويَّ في أول الجملتين بـ "أل" عاد فنَكَّرَهما في قوله "**قَوِيٌّ** عِنْدِي – **ضَعِيفٌ** عِنْدِي"، ولعل حمل التنكير هنا على معنى التنويع أقرب؛ لأنه يعطي دلالة سخية تجعل القوي الظالم المتغطرس على حق الضعيف بعدما ينزله الحاكم العادل والمسئول العادل من علياء قوته وظلمه وغطرسته لا يصير كأي ضعيف بل يكون ضعيفا من نوع خاص، يكون ضعيفا مُمَيَّزًا عن جميع الضعفاء؛ فهو الضعيف الذي أزال عنه الحاكم قوته وحَطَّهُ من علياء غطرسته وظلمه وطغيانه على المستضعفين من عباد الله، فيكون هذا التنكير مِيْسَمًا له ومَعْلَمًا دالا عليه، وفي هذا ما فيه من التشهير به والتشنيع عليه؛ تفظيعا للجرم الذي ارتكب وهو ظلمه للضعيف الذي لا يجد له نصيرا واستخفافه به ٠٠٠ وتنكير "قوي" في قوله "وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي" تفيد التنويع وتجعل هذا القوي نوعا خاصا من الأقوياء، هو القويُّ الذي رَفَعَه عَدْلُ الحاكم إلى مصاف الأقوياء بعدما كان ضعيفا مستضعفا، هو القوي الذي ذاق طعم الظلم والذل والاستعباد على يد الأقوياء الظلمة، فحَرِيٌّ به بعدما صار قويا بسيف الحاكم العادل وقوة الحق وكلمة الحق ونور العدل، حَرِيٌّ به أن يكون قويا منصفا عادلا نصيرا لكل مظلوم مسعفا لكل ملهوف مغيثا لكل مستغيث ٠٠٠ تنكير التنويع هنا يجعل هناك نوعا خاصا من الضعفاء ونوعا خاصا من الأقوياء، فصار معنا في الحياة نوعان من الأقوياء ونوعان من الضعفاء: أقوياء بذواتهم وقدرتهم، وأقوياء بعدل الحاكم العادل، وضعفاء بذواتهم وعجزهم، وضعفاء أنزلهم إلى الضعف عدل

الحاكم العادل، وهذا المعنى السخي وراء دلالة التنكير على التنويع، والشاهد العَلَمُ فيه قول ربنا جل وتقدس "**وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ** " (البقرة٧) تنكير غشاوة يفيد أن على أبصار هؤلاء الكفار نوعا خاصا من الغشاوة أي الغطاء وهو غطاء التعامي عن آيات الله جل وعلا كما قال علماؤنا "[1]".

وحرف الجر "في" في قوله "وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي – وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي"، هو حرف الوعاء والظرفية، يعني أن الأمة صارت كالوعاء اختلط فيه القوي والضعيف وتمييز هذا من ذاك يحتاج إلى بحث وتنقيب ومزيد من التحري والتتبع لأحوال الأمة.

ومن مواضع التأنق في هاتين الجملتين ذلك الظرف" **عِنْدِي**" الذي تكرر في الجملتين "الضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ **عِنْدِي** حَتَّى آخُذَ لَهُ حَقَّهُ، وَالْقَوِيُّ ضَعِيفٌ **عِنْدِي** حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ "، وهذا الظرف يطوي وراءه أساسا مهما جدا من الأسس التي ينبغي تحققها فيمن يلي أمر الأمة وفيمن يكون حاكما أو مديرا أومسئولا في أي موقع من مواقع الأمة، وهو أن تكون للحاكم رؤية واجتهاد يحقق به للأمة التقدم والنهضة، ويكون له فِكْرٌ يرقى بالأمة ويرفع قدرها ويحقق فيها العدل والحق، هذا مع أن سيدنا أبا بكر ﷺ أكد في خطبيته أنه متبع لا مبتدع، فقال "إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٌ "، فلا تعارض بين الأمرين، لا تعارض بين أن يكون الحاكم ذا فكر ورؤية وأن يكون متبعا لما جاء به الشرع الحنيف، وذلك أن فكر الحاكم نابع من هذا الشرع الحنيف يخرج من مشكاته ويسير في ضوء نوره، فالعدل من مقاصد التشريع، ولكن في كيفية تحقيقه وتطبيقه تختلف السبل وتتعدد الوسائل، وللحاكم أن يختط لنفسه إلى تحقيق العدل سبيلا، وكل سبيل يوصل إلى العدل ويحققه فهو من الشرع ؛ لأنه يحقق مقصدا من مقاصده.

---

(١) ينظر الكشاف للزمخشري ١٦٥/١ والإيضاح للخطيب القزويني ١/ ٩٣ .

هذا الظرف يقول لأفراد الأمة دققوا عند اختيار الحاكم كثيرا، وراجعوا فكره، وانظروا إلى ما يحمله من فكر ورؤى لتحقيق العدل والتقدم، فاختاروا صاحب الفكرة والرؤية، اختاروا من يقول "**عندي**"، لا من لا عند له، بل هو إمَّعَةٌ، بلا فكر ولا رؤية ولا برنامج.

قوله "**عندي**" يعني أن الأمر خاص به ﷺ وبتجربته وبرؤيته وبفكره ﷺ، ولا ريب في أن عرض هذا المعنى على سبيل الإخبار دون الأمر أو النهي، يهتف بكل حاكم ذي عقل سليم أن ينظر في هذا الخبر ويعرضه على منطق العقل والتجربة ؛ فإنه واجد فيه الخير والحق والعدل والرقي والتقدم، وواجدٌ فيه الصورة المُثْلَى لذلك؛ فيختاره عن طواعية وحب واقتناع؛ وهذا خيرٌ ألف مرة من أن يسلك سيدُنا أبو بكر ﷺ مسلك الأمر أو النهي فيقول مثلا: اجعلوا القوي فيكم ضعيفا حتى تأخذوا الحق منه، واجعلوا الضعيف فيكم قويا حتى تأخذوا الحق له.

وأسند الفعل " آخُذَ " في الجملتين " حَتَّى آخُذَ الحقَّ لَهُ – حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ " إلى الضمير العائد إلى سيدنا أبي بكر ﷺ إسنادا مجازيا من إسناد الفعل إلى سببه؛ لأنه ﷺ هو الآمر بأن يؤخذ للضعيف حقه من القوي، والآمر للقوي بأن يرد للضعيف حقه ؛ عن طريق القضاء العادل الذي يرد الحق إلى صاحبه، والدافع إلى حمل الإسناد على المجاز العقلي صعوبة وتعذر أن يقوم سيدنا أبو بكر برد الحق إلى أصحابه في الأمة كلها على اتساع رقعتها وترامي أطرافها، وروعة المجاز أنه آنسنا بالحقيقة وجعل سيدنا ﷺ كأنه هو الذي يقوم برد الحقوق إلى أصحابها بنفسه في كل شبر من أرض الإسلام، ووراء هذا ما وراءه من رغبة صادقة وعزيمة حَزَّاءَ ماضية في تحقيق العدل لتُشْرِقَ به الحياةُ وتَسْعَد.

و"الحَقُّ" ضد الباطل، واستعمل هنا بمعنى العدل الذي هو ضد الظلم، وأُطْلِقَ لفظ "الحقّ" هنا على ما سلبه القوي من حق الضعيف معنويا كان أم ماديا، كضَرْبِهِ واغتصابِ مالِه وعِرْضِهِ وأرضِهِ وسَبّه والاستهزاء به ٠٠ إلخ، لفظ

"الحق" لفظ واسع يشمل هذا وغيره من حقوق الإنسان التي يجب صيانتُها وعدمُ الاعتداء عليها، كحقه في الحرية والكرامة ٠٠ إلخ.

وقوله ﷺ "حَتَّى آخُذَ الحقَّ لَهُ" هو هو قوله "حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ"، وليس بينهما فرق إلا في حرف الجر، اللام في "لَهُ " ومِنْ في "مِنْهُ"، واللام تعني النفع؛ لأن أخذ الحق للضعيف نَفْعٌ له برجوع حقه وإزالة الظلم عنه، و"مِنْهُ" للضرر الواقع بالقوي حين يؤخذ منه حق الضعيف، وقوله "مِنْهُ" أوقع الأخذ على ذات القوي، مع أنه في الحقيقة أَخْذٌ لمال الضعيف الذي اغتصبه القوي وأخذ لأرضه التي اغتصبها ٠٠٠ إلخ، وإيقاع الأخذ على ذات القوي بالضمير المجرور "مِنْهُ" يصور هذا الأخذ كأنه اقتطاع من لَحْمِ القَوِيّ وجِسْمِه، أي كأن الحاكم العادل يقطع جزءًا من جسم القوي الظالم حين يُعِيدُ للضعيفِ حَقَّهُ المسلوب، ووراء هذا ما وراءه من دلالة على صعوبة هذا الأخذ وصعوبة استرداد الحق لأصحابه من أيدي الظلمة الجبارين، وأن هذا لا يُدْرَكُ بالهوينا، بل بالقوة؛ والحق دائما لا بد له من قوة تحميه وتعين على إحقاقه. والله أعلم.

وفي حرفي الجر "مِنْهُ – لَهُ" دلالة على النزاهة الكاملة للحاكم، وتحديدٌ لمسئوليته ووظيفته في هذه الحقوق، وأنها وظيفة من يأخذ الحق من القوي ويسلمه للضعيف، هكذا بحرفى الجر "من" واللام، فهو حين يأخذ من القوي حق الضعيف لا يُبْقِيهِ عنده ولا ينتفع به بل يعطيه للضعيف ويسلمه إياه؛ فكأنه انتقل عن طريقه "مِنَ" القوي للضعيف مباشرة، فالحاكم النزيه النظيف اليد لا يَدَعُ أموالَ الضعفاء في خِزانَتِه ينتفع بها هو وأبناؤه وأحفاده وبطانته ومقربوه، والضعفاء محرومون من أموالهم المنهوبة وحقوقهم المسلوبة ؛ ولا مُشْتَكَى لهم إلا إلى الله، حرفا الجر هنا أعطيا هذه الدلالة السخية التي تراها في قولك: تَسَلَّمَ المالَ فُلانٌ مِن فُلانٍ يَدًا بِيَد، وتلك هي المناجزة التي يَرْضَى عنها الله تعالى ورسوله ﷺ، أمَّا حَبْسُ أموال الضعفاء الذين لا ناصر لهم إلا الله جل جلاله والانتفاعُ بها من الحكام وولاة الحكام وأبناء الحكام

وأبناء أبناء الحكام وحسناوات الحكام، فذاك شيءٌ آخرُ في عصور الظُّلُمات التي لا نجاة منها إلا بالله.

ورُوِيَتْ هاتان الجملتان في السيرة النبوية لابن هشام وبعض الكتب التي روت الخطبة بلفظ:

"وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي **حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ**، وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ **إِنْ شَاءَ اللَّهُ**"، ومعنى "حتى أُرِيحَ عليه حَقَّهُ": حتى أَرُدَّهُ إليه؛ قال الشاعر:

أَلا تُرِيحي علينا الحقَّ طائعةً، دونَ القُضاةِ، فقاضِينا إلى حَكَمِ

ومنه حديث السيدة عائشة رضي الله عنها "حتى أَراحَ الحَقَّ على أَهله""[1]"، وفي هذه الكلمة إيحاء بمعان جيدة:

منها: الدلالة على إدخال الفرح والسرور على الضعيف صاحب الحق عند رَدِّ حَقِّه إليه، كما يَفْرَحُ راعي الإبل عند إراحة إبلِه مساءً إلى مُراحها الذي تَبِيْتُ فيه بَعدَما سَرَحَتْ نَهارَها وأَكَلَتْ وشَرِبَتْ، غَدَت خِماصًا وعادت بِطانًا، قال جل وعلا "**وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ**" (النحل٦).

ومنها: الدلالة على أن الحاكم يجمع للضعيف حقَّه وإن تَفَرَّقَ وتَشَتَّتَ شَذَرَ مَذَرَ، وأخذ كُلُّ قَوِيٍّ من حق هذا الضعيف شيئا؛ حتى ضاع حقُّه وتَفَرَّقَ بَينَ الأقوياء، فالحاكم العادل يجمع عليه حقه ويرده إليه، كما يجمع الرعاة الإبل وإن تفرقت بها المراعي لتبيت في مُراحها.

ومنها: الدلالة على أن الحاكم في سبيل رد الحق إلى الضعيف يَتْعَبُ ويلقى من المشقة ما يَطْوِيهِ حرفُ الغاية "حَتَّى" ؛ فيأخذ الضعيفُ حقَّه دون أن تتقطع أنفاسُه في طلبه والحصول عليه مع ذُلِّ الطلب ومماطلة القوي المغتصب وغطرسته وتَكَبُّرِهِ، فالحاكم يحمل عِبْءَ ذلك كُلِّه عن الضعيف

(١) ينظر لسان العرب لابن منظور مادة : روح ٠

ويَكْفِيهِ ذلك كُلَّه؛ فيُرِيحُ عليه حقَّه وهو فى راحة ؛ فالحاكم العادلُ يَتْعَبُ لِيُرِيحَ الضعيفَ ويكفيه الشقاء في طلب حقه والحصول عليه.

وإذا كانت هذه أطيافا من المعاني التي يجود بها التعبير بكلمة "أُرِيْح" في رواية "**حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ**"، ففي التعبير بكلمة "**آخُذ**" في رواية "**حَتَّى آخُذَ الحَقَّ له**" دلالة على ما يحتاجه أخذ الحق للضعيف من قوة وشدة؛ فإن هذه القوة هي التي تَرْدَعُ القَوِيَّ وتُرْهِبُهُ حتى يُؤْخَذَ الحَقُّ منه انتزاعًا على كُرْهٍ منه وإرغام له، وهذا المعنى في التعبير بالأخذ ناظرٌ إلى قول الله جل وعلا:

"**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ**" (النساء١٥٣).

"**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**" (الأعراف٧٨).

"**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ**" (الحجر٧٣).

"**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء**" (المؤمنون٤١).

"**فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**" (غافر٥).

"**فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ**" (القمر٤٢).

الأخذ في الآيات السابقة فيه قوة وشدة عاتية.

وتعريف الحق في هذه الرواية بالإضافة إلى الضمير العائد على الضعيف في قوله "وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي **حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ**"، جاء التعريف هنا بالإضافة إلى الضمير في مقابل تعريف الحق بـ "أل" في رواية "الضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ **الحقَّ** له"، وفي كلّ تعريف منهما لَمْحٌ إلى معنى، فالتعريف بـ" أل" يدل على أن حق الضعيف معهودٌ معروف، وهذا يُيَسِّرُ للحاكم التَّعَرُّفَ عليه ورَدَّهُ، لأن حق الضعيف لو لم يكن معلوما معروفا لَتَعَذَّرَ على الحاكم رَدُّهُ ٠٠ والتعريف بالإضافة في رواية "حقّه" يدل على أن الحق مضافٌ للضعيف ومنسوبٌ إليه وثابتٌ له وإنْ تَغَوَّلَ عليه القَوِيُّ فانتزعَه من صاحبه واستحوذ عليه، وربما يُغَيِّرُ مَنارَهُ ومعالمَه؛ فهذا كُلُّهُ لا يُزَحْزِحُ نسبةَ الحقِّ عن صاحبِه الضعيفِ قِيْدَ أُنْمُلَة.

وتزيد رواية " وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي **حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ،** وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ **إِنْ شَاءَ اللَّهُ** "التقييد بالمشيئة وفيه معان جليلة، منها: التبرك بالاسم الجليل (الله) جل جلاله، ومنها: الاحتراس بدفع ما يُتَوَهَّمُ من أن الخليفة متى سعى للضعيف لرد حقه إليه من القوي فإنه رَادُّهُ إليه ؛ لأن الخليفة قد يفعل ذلك ثم لا يُوَفَّقُ في رَدِّ الحق إلى الضعيف؛ لأن إرادة الله جل جلاله ومشيئته وحكمته فوق كل سَعْيٍ مِن العبد وإن كان خليفةَ المسلمين وإمامَهم؛ فليس على الخليفة والمسئول إلا الأخذُ بالأسبابِ والجِدُّ في تحقيق العدل ما وَجَدَ إلى ذلك سبيلا، أما إدراكُ النتائج فبيد الله جل جلاله، وكم لله مِن حِكَمٍ لا تُدْرِكُها الفِطَن، فـ "ربما أعطاك ليمنعك، وربما منعك ليعطيك"، كما قال ابنُ عطاء الله السَّكَنْدَرِيُّ في حِكَمِهِ العالية.

وبدأ ﷺ بالضعيف فقال "الضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ لَهُ حَقَّهُ "، وقَدَّمَهُ على القَوِيّ للإعلام بأنه موضع عناية الحاكم ؛ وأن لحقوقه الأولوية، وأن الأمة التي يأتي الضعيف فيها في ذيل اهتماماتها أمة ظالمة، فالضَّعِيفُ أميرُ الرَّكْبِ، كما عَلَّمَنا سيدُنا المصطفى ﷺ. ابتداء أبي بكر ﷺ بالضعيف ابتداءٌ فيه قُوَّةٌ وجَسَارةٌ تُنْبِيءُ من البداية عن سياسته، وأنها سياسةُ قُوَّةٍ لا تَهابُ ولا تخاف إلا الله جل جلاله، حتى ولو قَلَبَتْ موازينَ المجتمع، ما دامت هذه الموازين لا تقوم على الحق والعدل، كل والٍ وكل حاكمٍ وكل مسئولٍ ينبغي أن يبدأ بالضعيف؛ لأنه هو الجانب المكسور في الأمة، هو الجانب المظلم الذي لا يحب المسئول الظالم أن يراه أو يَسْمَعَ صوتَه أو يَعْلَمَ أخبارَه، إنَّ أُمَّةً يتقدم ضعفاؤها الأولوية في التعليم والاقتصاد والصحة ... إلخ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، وإن أمة يتقدم أقوياؤها وأغنياؤها وسَرَاتُها وأصحاب النفوذ والسطوة فيها الأولوية في التعليم والاقتصاد والصحة ... إلخ، أمةٌ تَبْحَثُ عن حَتْفِها بظِلْفِها وتَحْفِرُ قَبْرَها بيَدِها.

وإذا كانت الغاية من هاتين الجملتين هي أن يأخذ الضعيف حقه من القوي الظالم، فكان يكفي في تقريرها أن يقول سيدنا أبو بكر ﷺ إنه سيأخذ للضعيف حقه من القوي، ولكن سيدنا ﷺ قال "الضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ لَهُ حَقَّهُ، وَالْقَوِيُّ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ " فأَشْعَرَنا بهذا العكس الذي بُنِيَتْ عليه الجملتان بأن الغَرَضَ هو قَلْبُ الموازين المعكوسة التي تقوم عليها المجتمعات الظالمة، وقلب ميزان القوة والضعف فيها، بربط القوة والضعف بالحَقِّ ؛ لأن الحق هو الأساس، وهو العمود الذي تقوم عليه الحياة وتنهض به الأمم، فالقوة هي الحق، فإذا كان الحق مع الضعيف صار به قويا، وإذا كان الحق على القوي صار به ضعيفا، وبهذا يَعْتَدِلُ الميزان، والإمام العادل هو من يحمل راية الحق في كل ميدان، ويعطي الراية لأهل الحق في كل مؤسسة، ويجعل الحق هو المقصد الأسنى الذي تقوم عليه حياة الأمة ...صياغة الجملتين تدل على أنه ليس المقصد منهما فقط هو إعطاء الضعيف حقه، بل إصلاح الأمة كلها بهذا المبدأ الثابت الذي قامت عليه الحياة؛ لأنه هو الطُّهْرُ، والعدل، والصدق، وحَسْبُه أنه نابع من اسم الله "الحَقّ"؛ الذي به قامت السماوات والأرض وبه أَرْسَلَ الله الرسل وأنزل الكتب.

قول سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ :

" لَا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرَبَهُمْ اللَّهُ بِالذُّلِّ "

آثر سيدنا أبو بكر ﷺ الترهيب من ترك الجهاد في سبيل الله بذكر الذل الذي يضرب الله تعالى به الأمة إذا هي تركته، على الترغيب في الجهاد في سبيل الله بذكر ثوابه وما أَعَدَّ لله تعالى للمجاهدين من أجر كبير في الآخرة ؛ وذلك للترهيب من الصورة المظلمة، صورة الذل الذي يضرب الله جل جلاله به الأمة كلها، وفي هذا دعوةٌ إلى القوة ولزوم الجهاد في سبيل الله ؛ لأنه لا خيار أمام الأمة إلا أحد أمرين: إما الجهاد في سبيل الله، وإما الذل، ولا ثالث لهما، والسبيل إلى الذل هو ترك الجهاد في سبيل الله، والسبيل إلى العز هو الجهاد في سبيل الله، فحِرْصُ الأمة على إعلاء روح الجهاد في سبيل الله بالجمع

والاستعداد وبناء المصانع الحربية لإنتاج السلاح وتزويد الجيش بكل ما يرفع كفاءته وقوته وتفوقه هو السبيل إلى العز؛ لأن الأمة التي هذا حالُها أمةٌ قوية مُهابةٌ يرهبها أعداؤها، وإدخال الرَّوْعِ والخوف في نفوس الأعداء باب النصر؛ قال ﷺ " نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ""[1]؛ أما الأمة التي تترك الجهاد في سبيل الله، وتترك إعداد القوة والجيش والسلاح فهي أمةٌ ذليلةٌ ضعيفةٌ تستذلُها الأمم وتتداعى عليها.

وللحرص على قوة الأمة وعزتها ركز سيدنا أبو بكر ﷺ على الجهاد في سبيل الله تعالى، ولم يذكر الصلاة والصيام والزكاة والحج مع أنها من أركان الإسلام الخمسة؛ لأن خليفة المسلمين بعد رسول الله ﷺ يريد في أول خطبة عامة له أن يحافظ على قوة الإسلام ونشره في العالمين بعد لُحُوقِ الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، حتى لا يتوانى المسلمون عن نشر الإسلام ورفع لوائه بعد رسول الله ﷺ وتحقيق العزة والكرامة لهذه الأمة المجيدة.

وتنكير "قوم" في قوله "لَا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" للدلالة على عموم هذا الحكم لكل قوم يدعون الجهاد في سبيل الله في كل زمان ومكان، وفيه أيضا دلالة على أن هؤلاء قوم نكرات مجهولون لتركهم الجهاد في سبيل الله، ولو لَزِمُوهُ لكانوا معارف ذوي شهرة وعز وشرف.

وفي التعبير بـ " قوم" تعريض بهم؛ لاشتقاق الكلمة من القيام فالقوم هم القائمون المرابطون الجادُّون؛ ووَصْفُهُم بـ "قوم" مع تركهم الجهاد في سبيل الله تعالى يعني أنهم لا يستحقون الوصف بالقيام والجد والتآزر والتعاون؛ وكيف يستحقونه وقد تركوا الجهاد في سبيل الله تعالى، وهذا تخاذل وتهاون،ويا بُعْدَ ما بين القيام والتخاذلِ والتهاون !!

و"الجهاد" من مادة "ج هـ د" وهي تدل على بذل الجُهْد، والماضي منه "جاهد" على وزن "فَاعَلَ"، ومصدره جهاد ومجاهدة؛ لأن "فَاعَلَ" يأتي مصدرُه على

(١) مسند أحمد مسند عبد الله بن العباس ٤/٤٧٢ حديث رقم ٢٧٤٢.

وزن "فِعَالٍ ومُفَاعَلَةٍ"، ولزوم الألف الزائدة في الفعل "جاهد" ومَصْدَرَيهِ " جهاد – ومجاهدة " يتناسب مع ما فيه من مزيد المشقة وبذل المجهود في القتال.

وتقييد الجهاد بالجار والمجرور "في سبيل الله" فيه تشنيع على من تركه؛ لأنه ما دام "في سبيل الله" فتَرْكُه فيه تشنيعٌ عليهم؛ لأن من ترك شيئا " في سبيل الله " أي يُوَصِّلُ إلى رضا الله ومحبته فهو مَحْرُوم. وفي العبارة مضاف محذوف؛ إذ التقدير: الجهاد في سبيل دين الله؛ وفي الحذف دلالة على أن الجهاد في سبيل دين الله ﷻ لإعلاء كلمة الله هو جهاد في سبيل الله، وفي هذا تشريفٌ وتكريم أن يكون عملُكَ لله جل جلاله.

وضَرْبُ الذل في قوله ﷺ "إِلَّا ضَرَبَهُمْ اللَّهُ بِالذُّلِّ" يعني ثبوت الذُّلِّ وإحاطته بمن تَرَكُوا الجهاد في سبيل الله؛ وعلى هذا ففي العبارة استعارة تبعية في الفعل "ضَرَبَ" بمعنى " ثَبَتَ"، أي : ثَبَتَ الذل عليهم، وهو مستعارٌ من ضَرْبِ اللَّبِنِ حول البيت، وفي الضرب قوةٌ ليست في الثبوت، وفيه مع ذلك معنى الإهانة؛ لأن أصل استعمالها هو الضرب باليد وما فيه من إهانة وإيذاء للمضروب.

وقوله "إِلَّا ضَرَبَهُمْ اللَّهُ بِالذُّلِّ" اقتباس من قول الله تعالى عن اليهود "**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ**" (البقرة٦١)، "**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ**" (آل عمران١١٢)، ولم يُذْكَرْ ضَرْبُ الذلة في القرآن إلا في هذين الموضعين وهما في حق اليهود لا غير، وبُنِيَ الفعلُ "ضُرِبَ" في الآيتين للمفعول للعلم بالفاعل وهو الله جل جلاله؛ فهو – وحده – جل وعلا القادر على أن يضرب الذلة على اليهود أينما ثُقِفُوا، فالذلة محيطة بهم، وما منهم من أحد إلا وهو ذليل، وهذا الذل ينتقل معهم ويلازمهم في كل زمان ومكان؛ هذا الضرب لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله، وبناء الفعل "ضَرَبَ" للفاعل وإسناده إلى "الله" جل وعلا في قول أبي بكر الصديق ﷺ "إِلَّا ضَرَبَهُمْ اللَّهُ بِالذُّلِّ" فيه تصريحٌ بالاسم الجليل الذي جعلته الآية معلومًا عِلْمَ ضَرورةٍ ؛ لأن هذا الضرب لايكون إلا منه جل وعلا؛ وهذا هو الأفق الأسمى، أفق القدرة التي تقول للشيء كن فيكون ٠٠ وذَكَرَتِ الآيتان الكريمتان الجار

والمجرور "عليهم" للدلالة على العلو والاستعلاء؛ أي أن الذلة تعلو اليهود كما يعلوهم السقف، وتظلهم كما يظلهم السقف، فهي ظاهرة لا تَخْفَى ٠٠ وفيه أيضا دلالة على أن الذلة محيطة بهم إحاطة البيت بمن يسكنه وإحاطة الخيمة المضروبة بمن بداخلها، وهذا المعنيان (علو الذل – وإحاطته) جاءا من التعبير بحرف الجر "على" الذي ذُكِرَ في الآيتين ولم يُذْكَرْ في كلام سيدنا أبي بكر ﷺ، وهذا من فضل كلام الله جل وعلا على كلام خلقه.

وقوله ﷺ "لَا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرَبَهُمْ اللَّهُ بِالذُّلِّ" مبني على أسلوب القصر الذي طريقه النفي والاستثناء لزيادة الاهتمام والعناية بهذا المعنى وهو التحذير من سقوط الأمة في هاوية الذل؛ والموتُ مع العز خيرٌ من الحياة مع الذل؛ ولذا قصر سيدنا أبو بكر ﷺ حال القوم الذين يدعون الجهاد في سبيل الله على حال واحد وهو أن يضربهم الله تعالى بالذل ٠٠ وضربةُ الذل موجعةٌ فاجعة، وإذا رَضِيَ سَاقِطُ النَّفْسِ أن يعيش ذليلا فهل يرضى حرٌّ أن يعيش ذليلا ؟ وإذا رَضِيَ حُرٌّ من القوم أن يعيش ذليلا فهل يرضى قومٌ أحرار أن يضربهم الذل جميعا ضَرْبَةَ لازِبٍ ؟ وكلمة " قوم " فيها معنى القيام والقوامة والجد والعزم، ورِضَا قومٍ هذه صفاتُهم بالذل بحيث لا يَبْقَى منهم عزيزٌ ولا يَبْقَى فيهم رجلٌ شامخٌ بنَفْسِه، أَبِيٌّ، كريمٌ = هذا الرِّضَا فيه غاية القهر والذل.

إن الإباء الحق والعز الحق ينبغي أن يكون في نُصْرَةِ الحق وإعلاء رايته في العالمين، ولا يتحقق ذلك إلا بالجهاد في سبيل الله، أما الإباء والشموخ والبلادُ ذَلِيلة، والعدو محيط بها، يقتطع كل يوم من أرضها وكرامتها، فهذا هو الإباء الكاذب والشموخ الكاذب، إباء التضليل وشموخ التضليل في الواقع المُخْزِي الذي يتغنى أَفَّاقُوهُ بالعزة والنصر والشموخ والمجد !!

وروى سيدنا أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقِ عن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قولَه "مَا تَرَكَ قَوْمٌ الْجِهَادَ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ" (١)؛ وعلى هذا فسيدنا أبو بكر ﷺ نظر في خطبته إلى هذا الحديث الشريف الذي رواه هو عن رسول الله ﷺ، واقتبس منه.

قول سيدنا أبي بكر ﷺ

" وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ "

إذا كان الجهاد في سبيل الله تعالى تحصينا للأمة من الأخطار الخارجية، فقد أتبعه سيدنا أبو بكر ﷺ بما يحصنها من الداخل وهو الأخلاق التي تحمي المجتمع من شيوع الفاحشة فيه، فقال سيدنا أبو بكر ﷺ "وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ"، ومدار حياة الأمم على أمرين: القوة والأخلاق، فالقوة جيش يحميها من الخارج، والأخلاق جيش يحميها من الداخل، وهذا سر الجمع بين هذين المعنيين في أول خطبة جامعةٍ للصدِّيق ﷺ يَضَعُ فيها دُسْتُورًا للأمة بعد لُحُوق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى.

والنفي في قوله "وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ" منصب على شيوع الفاحشة بمعنى ظهورها وانتشارها ورواجها فيهم، وهذا نذيرُ شؤمٍ وفسادٍ وخرابٍ وهدمٍ لهؤلاء القوم بأيديهم ومن داخل أنفسهم، كما أن تَرْكَ الجهاد في سبيل الله تعالى هَدْمٌ لهم بأيدي أعدائهم، والجمع بين الأمرين يعني التحذير من هدم الأمة بأيديها أو بأيدي أعدائها، قال تعالى: "**يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ**" (الحشر ٢) ٠٠ وشيوع الفاحشة يَعْنِي الانحطاط الأخلاقي في المجتمع، وأن يكون المجتمع كله مغموسا في الخطايا والمعاصي والانحراف؛ ووراء هذا تدمير القيم والأخلاق، وليس بعد هذا التدمير إلا الهلاك.

ولفظ "الفاحشة" يمكن حملُه على عموم معناه فيشمل جميع المعاصي وكل ما هو قبيح، ويمكن حملُه على معنى خاص وهو الزنا؛ لأنه من أكبر الفواحش، وقد ذكر العلماء هذين الاحتمالين في تأويل قول الرسول ﷺ "إِذا ظَهَرَتِ

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٤/ ١٤٨ برقم ٣٨٣٩ ٠

الفاحِشَةُ كانَتِ الرَّجْفَةُ، وَإِذا جارَ الحُكَّامُ قَلَّ المَطَرُ، وَإِذا غُدِرَ بِأَهْلِ الذِّمَّةِ ظهر العدو""[1]"، وفي حديث آخر قال الرسول ﷺ "وَلَا ظَهرت فيهم الْفَاحِشَة إِلَّا فَشَا فيهم الْمَوْت"" [2]".

وحرف الجر "في" للظرفية والوعاء في قوله "وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمْ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ"، وهذا يدل يدل على أن هؤلاء القوم صاروا ظرفا ووعاء تستقر فيه الفاحشة التي تغلغلت فيهم واتخذتهم وطنا ؛ ولذا كان التعبير بـ "في" أبلغ من أن يقال: ولا تشيع الفاحشة عند قوم.

وقوم تشيع فيهم الفاحشة قوم نكرات لا يستحقون الذِّكْرَ ولا التعريف؛ ولذا جاءت كلمة " قوم" نكرة، وفي التنكير أيضا دلالة على العموم، وأن هذا الحكم صادق على كل "قوم" تشيع فيهم الفاحشة في كل زمان ومكان.

و"قَطُّ " في اللغة قال عنها ابن هشام إنها "ظرفُ زمانٍ لاستغراق مامضى ٠٠٠ وتختص بالنفي، يقال ما فعلته قطّ، والعامة يقولون: لاأفعله قطّ، وهو لَحْنٌ، واشتقاقه من قَطَطْتُه، أي قَطَعْتُه، فمعنى مافعلتُه قَطُّ: ما فعلتُه فيما انقطع من عمري؛ لأن الماضي منقطع عن الحال والاستقبال، وبُنِيَتْ لتضمنها معنى مُذْ وإلى؛ إذ المعنى مُذْ أن خُلِقْتُ أو مُذْ خُلِقْتُ إلى الآن""[3]"، وما ذكره ابن هشام في هذا النص هو خلاصة وافية لما في كثير من كتب اللغة والمعاجم؛ إلا أن اختصاص "قَطُّ " بنفي ما مضى من الزمان دون ما يستقبل يُعَكِّرُ عليه قول سيدنا أبي بكر ﷺ "وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمْ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ"؛ لأن النفي هنا لما يستقبل من الزمان لوقوع الفعل المضارع "تشيع"

---

(١) أخرجه الطبراني في الجامع الصغير برقم ١٦٠٤ مطبوع مع فيض القدير للمناوي ١/ ٤٠١ وفي هامش التحقيق : " قال الألباني (ضعيف) انظر حديث رقم ٥٩١ في ضعيف الجامع "٠

(٢) الجامع الصغير مع فيض القدير ٣/ ٤٥٢ حديث رقم ٥٥٥١ قال الألباني (حسن) انظر حديث رقم: ٣٢٤٠ في صحيح الجامع ٠

(٣) مغني اللبيب لابن هشام ص ٢٣٢ بتصرف ٠

بعد "لا" النافية، وهذا يدل على استغراق النفي للزمن المستقبل؛ على أن هذا المعنى الذي تحمله الجملة بين مبانيها أصلٌ ثابتٌ وشريعةٌ ماضية في الزمان كله، مستغرِقَةٌ لما كان منه، ولما هو كائن، ولما سيكون، فالفاحشة ما شاعت في قوم في الزمن الماضي إلا عمهم البلاء، كشيوع اللواط في قوم لوط الذين أهلكهم الله بفَعْلَتِهم فجعل عالِيَها سافِلَها، قال جل وعلا: "**فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ . مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**" (هود ٨٢، ٨٣)، وتلك سنة الله الجارية في الزمان كله ماضيه وحاضره ومستقبله "**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**" (الأحزاب٦٢) "**سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**" (الفتح٢٣)، وقال جل وعلا: " **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**" (فاطر٤٣) ؛ وعليه فإن حق ظرف الزمان "قَطُّ" في كلمة سيدنا أبي بكر ﷺ " وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمْ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ" أن يكون لاستغراق الزمن كله ماضيه وحاضره ومستقبله، وإن قَصَرَ علماؤنا استعمال "قَطُّ" على استغراق ما مضى من الزمان فقط؛ فالأولى أن يقال إن هذا هو الغالب المطرد، وقد تكون "قَطُّ" لاستغراق الزمن المستقبل أيضا، وكلمة أبي بكر شاهدٌ عَدْلٌ على ذلك، ومما يَرِدُ في الاحتمال أن يُقال: إن المضارع " تَشِيعُ " في معنى الماضي "شاعت"، والتعبير بالمضارع في موضع الماضي يفيد استحضار الصورة، أي استحضار صورة الفاحشة التي شاعت في الزمن الماضي وكأنها ماثلة مشاهَدة يراها رأى العَين، وفي هذا تصويرٌ وتجسيدٌ للأحداث الماضية وبَعْثٌ لها من رَقْدَة العَدَمِ ؛ ليستحضرها الناس ويروها ويشاهدوها كأنها تدور الآن وتقع تحت سمعهم وأبصارهم، وهذا معنى جيد بلا ريب، ولكنَّ صِدْقَ هذه الجملة وجَلالَ معناها الذي يستغرق أمد الزمن ويقطع الدهور دهرا دهرا، وهو ثابت لا يتخلف، صادق لا يكذب، عادل لا يجور، سنة ماضية لا تتبدل ولا تتحول، فيما كان وانقطع، وفيما هو كائن لم ينقض، وفيما سيكون في المستقبل القريب، والمستقبل البعيد؛ لأنها حكم الله

العدل، وقضاؤه الذي لا يُرَدُّ، هذا الصِّدْقُ يجعل حمل المضارع هنا على المستقبل أولى من تأويله بالماضي لتصحيح قاعدة "قَطُّ" وتحقيق أنها لا تكون إلا " ظرف زمان لا ستغراق ما مضى من الزمان".

ومما يحسن تقييدُه هنا وإن لم يكن من الحديث في بلاغة الخطبة، لكن جَرَّ إليه البحث عن " قط " واستعمالها في العربية، أن من مجيىء المضارع معها قول الزبير بن العوام فيما نُسِبَ إليه من الشعر:

ولا منهم جبان قط يهزم ... ولا نذل فتلقاه حزينا

ومن مجيئها لمطلق الزمن قول مجنون ليلى :

لَيلى هِيَ البَدرُ ما لي قَطُّ مُصطَبَرٌ ... عَنها وَإِن كَثُرَت فيها الأَقاويلُ

ومن مجيئها غير مسبوقة بنفي قول البحتري :

لَو جَلَّ خَلقٌ قَطُّ عَن أُكرومَةٍ ... تُثنى، جَلَلتَ عَنِ النَدى وَالباسِ

ويلحظ في قول سيدنا أبي بكر ﷺ "وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمْ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ "أن بين عموم البلاء وشيوع الفاحشة تناسبا، فالعموم والشيوع أخوان، والفاحشة يَتْبَعُها البلاء كما يَتْبَعُ الشيءَ ظلُّه، إلا ما ستر الله وعفا، والبلاء الشر، والشر والفاحشة أخوان رضيعا لِبَان، وإذا كانت البلوى عامة كان البلاء عاما، وإسناد الفعل "عَمَّ" إلى الاسم الجليل "الله" كإسناد الفعل "ضَرَبَ" إلى الاسم الجليل "الله" في الجملة السابقة "لَا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرَبَهُمْ اللَّهُ بِالذُّلِّ"، وإذا كان الجليل هو الذي يضرب من ترك الجهاد في سبيل الله بالذل، وهو الذي يَعُمُّ مَن تشيعُ فيهم الفاحشةُ بالبلاء؛ فما لهم من دون الله من ناصر.

وكما كان الشيوع والعموم أخوان رضيعا لِبان، فإن الجهاد في سبيل الله وضرب الذل أخوان رضيعا لِبان؛ لأن الجهاد والضرب من واد واحد؛ فالجهاد قائم على الضرب والطعن، وهذا تناسب وتراحم في هاتين الجملتين المتجاورتين.

والبلاء اسم عام يطلق على كل شر، ورُوِيَ في موضعه في بعض الأحاديث الشريفة ألفاظ (الرجفة الموت – العذاب – العقاب) وهي تخصيص لهذا العام وبيان له، ففي الحديث الشريف قول الرسول ﷺ:

" **إذا ظَهَرَتِ الفاحِشَةُ كانَتِ الرَّجْفَةُ** " "[١]".

" **وَلَا ظَهرت فيهم الْفَاحِشَة إِلَّا فَشَا فِيهِم الْمَوْت**" "[٢]".

«**إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمُ اللهُ بِعَذَابٍ**» "[٣]".

«**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوَا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْ قَالَ: الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ**" "[٤]".

«**مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ فِيهِمْ رَجُلٌ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي يَقْدِرُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ وَلَا يُغَيِّرُونَ إِلَّا عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا**"" [٥]".

ولا يخفى اتحاد حذو الجملتين في قوله ﷺ:

"لَا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا ضَرَبَهُمْ اللهُ بِالذُّلِّ"

"وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمْ اللهُ بِالْبَلَاءِ"

وهذا التوافق في طريقة بناء الجملتين من شأنه أن يَزِيدَ الكلامَ تناسبا وتماسكا وترابطا، مما يُعِينُ على حفظه ؛ لأن حفظ الجملة الثانية سَهْلٌ يَسِيرٌ لبنائها على نمط الجملة الأولى، وهذا من تيسير اللطيف الخبير للبيان النبوي بما يجعله أفصح وأبلغ من كلام العرب ويرفعه فوق كلامهم مكانا عليا.

---

(١) أخرجه الطبراني في الجامع الصغير برقم ١٦٠٤ مطبوع مع فيض القدير للمناوي ١/ ٤٠١ .

(٢) الجامع الصغير مع فيض القدير ٣/ ٤٥٢ حديث رقم ٥٥٥١ قال الألباني (حسن) انظر حديث رقم ٣٢٤٠ في صحيح الجامع .

(٣) المعجم الكبير للطبراني ٢٣/ ٣٢٥ حديث رقم ٧٤٧

(٤) صحيح ابن حبان ١/ ٥٣٩ .

(٥) المعجم الكبير للطبراني ٢/ ٣٣٢ حديث رقم ٢٣٨٣ .

قول أبي بكر ﷺ:"**أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَاطَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ**".

بدأ هذا المعنى بأسلوب الأمر "أطيعوني" وهو أمر صريح مباشر حتى لا تختلف فيه التأويلات والعقول، فهو واضح لكل من سَمِعَهُ على اختلاف درجاتهم في الفَهْم والوعي، ووراء هذا دلالة على وضوح الحاكم وشفافيته وأنه يعامل الأمة بهذا الوضوح والشفافية، فلاخداع ولا كذب ولا تضليل، بل أمره معهم كالشمس ليس دونها غيوم ولا يحجبها شيء.

وتقديم الأمر "أطيعوني" على قوله "مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ"، ولم يكن نظم الجملة على أسلوب الشرط كأن يقول: إذا أطعت الله ورسوله فأطيعوني؛ فيه مسارعة لحفظ النظام والأمن ومقدرات الأمة والشعوب بطاعة ولي الأمر، ثم تنظر الأمة في حال ولي الأمر وتَحَقُّقِهِ بطاعة الله ورسوله.

وإيقاع الفعل "أطيعوني" على ضمير المتكلم مع أن الطاعة تكون لأوامره ونواهيه وتوجيهاته، وليست الطاعة لذاته ؛ لأن الطاعة لا تقع على الذات بل على ما يصدر عنها من أمر ونهي ؛ بدليل قول الله جل وعلا "**فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي**" (طه٩٠) "**وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ**" (الشعراء١٥١)، ووراء هذا دلالة على أن من أطاع كلمة الإمام فقد أطاع الإمام، ومن عصى أمر الإمام فقد عصى الإمام، تنزيلا لطاعة الكلمة والأمر منزلة طاعة الذات.

في إيقاع الفعل "أطيعوا" على ضمير المتكلم وهو سيدنا أبو بكر ﷺ مزيد حث لهم على طاعته؛ فمن أطاع منهم أمر أبي بكر ﷺ فقد أطاع أبا بكر ذاته، ومن أطاع أمر الرسول ﷺ فقد أطاع الرسول ﷺ ذاته، ومن أطاع أمر الله جل جلاله فقد أطاع الله جل جلاله كأنه واقف بين يديه جل جلاله، يَرَى الله ﷻ، ويعلم أن الله ﷻ يراه.

وحُذِفَ الجار والمجرور المتعلق بالفعل "أطيعوني" لإفادة العموم، فلم يقل ﷺ: اطيعوني في كذا؛ ليشمل الأمر بطاعته في كل شيء دون شرط إلا شرطا واحدا وهو أن يكون الخليفة مطيعا لله ورسوله؛ فعلى الأمة طاعة ولي

الأمر في كل قراراته ما دامت هذه القرارات لا تخالف ما أمر به الله ورسوله ولا تتصادم مع شرع الله، وتلك هي القاعدة الكلية التي بين الحاكم والمحكوم، ولا تزال الأمة بخير ما التزمت بها ولم تخرج عنها ٠٠ فطاعة الأمة للحاكم إذا عصى الله ورسوله وخالف ما شرع الله خروج على هذا الأصل، وعصيان الأمة للحاكم الذي توافق قراراته شرع الله جل وعلا خروج على هذا الأصل؛ ولا صلاح للأمة إلا بالالتزام بهذا الأصل التزاما دقيقا أمينا.

والفعل "أطيعوني" مادته (ط و ع) وهي تدل على المطاوعة واللين والانقياد، فمن أطاعك فقد لان لك وانقاد وأعطاك ما تريد عن طواعية واختيار؛ ومن أجل هذه المعاني كثر استعمال هذا الفعل في الموافقة والتسليم والانقياد.

وقوله "أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" يدل دلالة غير صريحة عن طريق الكناية على أن من اطاع ولي الأمر الذي يطيع الله ورسوله فقد أطاع الله ورسوله؛ وينبغي أن تستشعر الأمة هذا المعنى، وتعلم يقينا أن ولي الأمر ما هو إلا حلقة وصل تربط الأمة بالله ورسوله؛ لأن طاعة الله ورسوله من وراء طاعة ولي الأمر العادل الذي يطبق شرع الله تعالى ويأتمر بما أمر الله جل وعلا وينتهي عما نهى عنه الله جل وعلا، وقديما قال مجنون ليلى، وما هو بمجنون إلا في حُبِّها:

أَمُرُّ عَلى الدِيارِ دِيارِ لَيلى ... أُقَبِّلُ ذا الجِدارَ وَذا الجِدارا

وَما حُبُّ الدِيارِ شَغَفْنَ قَلبي ... وَلَكِن حُبُّ مَن سَكَنَ الدِيارا

حب الأمة للوالي الذي يأخذ بيدها إلى الله ورسوله يطوي وراءه حب الأمة لله ورسوله، وعصيان الأمة للوالي الذي يغضب الله ورسوله وراءه بغضها وكراهيتها لعصيان الله ورسوله؛ وبهذا ينكشف الغطاء، ونرى المعاني الثواني واقفة ماثلة وراء المعاني الأولى للألفاظ لتقول للأمة إن غايتها العظمى هي طاعة الله ورسوله؛ فإذا قادها الحاكم إلى نعيم هذه الطاعة ؛ فطاعة الحاكم واجبة ؛ لأن من أوصلنا إلى المحبوب محبوب، ومن أوصلنا إلى تحقيق الغاية فهو منها بسبيل.

والفعلان "أطيعوني – أطعت" من مادة واحدة إلا أن الأول بصيغة الأمر والثاني بصيغة الماضي، وصيغة الأمر في "أطيعوني" مناسبة لسلطة الحاكم وولي الأمر، وصيغة الماضي مناسبة في موضعها لما فيها من دلالة على تحقق الوقوع، واتحاد مادة الفعلين "أطيعوني – أطعت" تفيد أن الحاكم يقول للأمة: إذا كنتُ آمرُكم بطاعتي؛ فقد امتثلت قبلكم وأطعت الله ورسوله، فأنا آمركم بشيء كنت أنا أول المؤتمرين به والمطبقين له؛ فكنت لكم فيه إماما وقدوة ومثلا، ولم آمركم بالطاعة وأنا غيرُ مُطِيع، ولم آمركم بأمر إلا وأنا آخذ نفسي به قبلكم ؛ فليست للرئيس ولا للحاكم استثناءات ولا حَصَانة، ولستُ دكتاتورا آمُرُكم بما لا أئتمر به وأنهاكم عما لا أنتهي عنه، بل أنا قبلكم في تنفيذ ما آمركم به والانتهاء عما أنهاكم عنه، وهذا هو السبيل إلى امتثال الأمة للحاكم ومحبتها له وانقيادها لما يصدر عنه من قرارات وتشريعات، أما إذا رأت الحاكم يخالف ما يصدر عنه من قرارات وتشريعات فإن ذلك يحمل الأمة على التمرد على تلك القرارات؛ وقد أدبنا ربنا بهذا الأدب الرفيع فأمرنا أن نفعل ما نقول لنكون للناس قدوة، وجعل مخالفة الفعل للقول مما يجلب مقت الله سبحانه وغضبه وعقابه، قال تعالى: "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**" (الصف ٢، ٣)، ومن شواهد العربية التي تُعَلِّمُنا هذا الأصلَ كما تُعَلِّمُنا القاعدةَ النَّحْوِيَّةَ قولُ الشاعر:

لا تَنْهَ عن شَيءٍ وتَأْتِيَ مِثْلَهُ عارٌ عليكَ إذا فَعَلْتَ عَظِيمُ

و"ما" في قوله "مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" مصدرية ظرفية، أي: مدة طاعتي لله ورسوله، والظرفية تحدد أن المدة التي تلتزم فيها الأمة بتنفيذ أمر الحاكم هي المدة التي يلتزم فيها الحاكم بطاعة الله ورسوله، فليس للحاكم الصالح الذي يطيع الله ورسوله مدة زمنية تقدر بالأيام والشهور والسنين، بل هي المدة التي يطيع فيها الله ورسوله، يوما كانت أو شهرا أو دهرا، فهذا المقياس هو الذي يحدد بقاء الحاكم أو رحيله وعزله وإقالته، المقياس هو طاعة الحاكم لله ورسوله بما تَعْنِيهِ هذه الطاعة من إقامة شرع الله جل وعلا بما يحقق للأمة

التقدم والرقي والنهضة في شتى مجالات الحياة، فالتقدم في السياسة من طاعة الله ورسوله، والتقدم في التعليم من طاعة الله ورسوله، والتقدم في الصحة من طاعة الله ورسوله، والتقدم في الاقتصاد من طاعة الله ورسوله، والتقدم في إعداد الجيش القوي القادر على حماية الأرض والعرض هو من طاعة الله ورسوله، وهكذا كل شأن في الحياة فيه نهوض بالأمة من طاعة الله ورسوله، وكل أمر يجر البلاد إلى التخلف في أي ميدان هو من معصية الله ورسوله.

والتصريح بالاسم الجليل "الله" في قوله " أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ " فيه تربية للمهابة كما يقول علماؤنا الكرام، وعطف "ورسوله" على الاسم الجليل "الله" بالواو دَالٌّ على وجوب طاعة الرسول ﷺ فيما انفرد به من التشريع مما لم ينص عليه القرآن الكريم؛ لأن السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم؛ ولذا تكرر في الكتاب العزيز الأمر بطاعة الله ورسوله إحدى عشرة مرة، كما في قوله تعالى: "**قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**" (آل عمران٣٢)، واقترن بهما الأمر بطاعة ولي الأمر في موضع واحد وهو قوله جل وعلا: "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**" (النساء٥٩)، ولم تُسْبَقْ طاعة ولي الأمر في هذه الآية بالفعل "أَطِيعُواْ" لأن طاعته رَهْنٌ بطاعة الله ورسوله كما قال سيدنا أبو بكر ﷺ "أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

قوله ﷺ:

" **فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ** "

هذه الجملة تأكيد للجملة السابقة من باب تأكيد الشيء بذكر ضده، فقوله "أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" يُفْهَمُ منه ضمنا أنه إذا عصى الله ورسوله فلا طاعة له عليهم، ولكن أبا بكر رضي الله عنه لم يكتف بدلالة الفحوى، بل نص على ذلك نصا صريحا ليؤكد هذا المعنى.

وبين هذه الجملة والتي قبلها مقابلة أظهرت المعنى حين وضعت الضد بجوار ضده:

فوضعت:

"أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" وبجوارها "عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ".

ووضعت:

"أَطِيعُونِي" وبجواره "فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ".

وهذا ضَرْبٌ حَسَنٌ جدا من المقابلة نرى فيه آخر الجملة الأولى "أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" يقابله أول الجملة الثانية "عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ"، وأول الجملة الأولى "أَطِيعُونِي" يقابله آخر الجملة الثانية "فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ"، فبينهما طباق السلب بين الأمر بالطاعة في "أَطِيعُونِي" ونفي الطاعة في "فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ"، وهو نفي للطاعة بـ "لا " النافية للجنس، وذكر الخطيب القزويني أن طباق السلب يكون بين فِعْلَي مَصْدَرٍ واحدٍ أحدهما مثبت والآخر منفي، أو بين أمر ونهي"[1]"، والصورة التي معنا من طباق السلب بين أمر "أَطِيعُونِي" ونفي "فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ"، وليس بين أمر ونهي كما في الصورة التي ذكرها الخطيب، ولا ريب في أن التضاد محقَّق بين "أَطِيعُونِي" و"فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ"، وهذا يوسع أفق المقابلة بين الأمر والنهي لتشمل مع النهي النفي أيضا، فيدخل في هذه الصورة طباق السلب بين أمر ونفي.

وبناء الجملتين على هذه الطريقة من المقابلة يُظْهِرُ أن عصيان الله ورسوله هو الصورة الثانية بعد طاعة الله ورسوله؛ ولذا حَسُنَ تجاوُرُهما لحُسْنِ انتقال العقل من الضد إلى الضد؛ وجيء بينهما بالفاء العاطفة التي تصف هذه السرعة في توارد الأضداد وسرعة خطور الضد بالذهن عند ذكر ضده، وجاء آخر الجملة الثانية "فَلَاطَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ " نقضا للأمر الذي افتتحت به الجملة الأولى "أَطِيعُونِي"، ويقع الاحتمالان اللذان لا ثالث لهما – وهما "ما أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" "إذا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" – مُكْتَنَفَيْنِ بين أول الدائرة وآخرها، وهذا إحكام وتدقيق في بناء الكلام يوجب له الفضْلَ والمَزِيَّةَ.

---

(١) ينظر الإيضاح ٥٧٥ .

والتعبير بـ "إذا" التي تستعمل في الأمر المحقَّق المتيقَّن الذي لا شك فيه لا تفيد تأكيد وقوع عصيان الله ورسوله من خليفة رسول الله ﷺ، بل تفيد ضرورة التحقق والتثبُّت من قِبَلِ الأمة عند الحكم على ولي الأمر بذلك، حتى لا تبني الأمة أمرها في طاعة ولي الأمر أو عصيانه على ظنون وأوهام وشكوك لا أساس لها من الصحة، بل ينبغي أن تبني حكمها في هذا الأمر على اليقين الثابت والأدلة الدامغة والحُجَج الناهضة؛ حتى لا تنهار الثقة في الحاكم بالشائعات والظنون والأوهام؛ فإن أمر السياسة وحب السلطة مما يكثر فيه تلفيق التهم للأبرياء. الجزم والقطع بـ "إذا" هنا يعني ضرورة التثبُّت في أمر ولي الأمر قبل اتهامه.

ومعصية الله ورسوله تشمل كل معصية، وهي في حق الحاكم وولي الأمر تنصرف أولاً إلى ما يتعلق بمصالح الأمة في سياستها وتعليمها وصحتها واقتصادها وجيشها ومستقبل أجيالها وإقامة العدل ونشر الفضائل وإقامة الشعائر وتطبيق الشريعة ٠٠ إلخ؛ لأن عيش الأمة في ظلال الذل والدونية والضعف والتخلف من معصية الحاكم لله ورسوله، وعيشها في ظلال العز والقوة من طاعة الحاكم لله ورسوله ٠٠ ولهذا كان بناء المدارس والجامعات التي تعلم الأمة وتمحو عنها الجهل كبناء المساجد، وكان بناء المصانع التي تجلب القوة للأمة في اقتصادها كبناء المساجد ٠٠ وهذه مفاهيم يجب أن تستقر في نفوس الشعوب لتعلم أنها حين تحيا حياة حرة كريمة عزيزة فإنها تحيا في ظلال طاعة الله ورسوله، وتحت سلطة حاكم يطيع الله ورسوله، وأنها حين تحيا حياة القهر والذل والاستعباد والضعف فإنها تحيا تحت قهر من يعصي الله ورسوله.

وقوله ﷺ "فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ" جواب "إذا" الشرطية في قوله "فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ"، وهذا يعني أن عدم طاعة ولي الأمر مترتب على عصيانه لله ورسوله، يعني مترتب على إفساد الحياة الدينية والسياسية والعلمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية ٠٠ فالتقدم الذي تعيش فيه الأمة طاعة لله ورسوله،

والتخلف الذي تعيش فيه الأمة معصية لله ورسوله، والحاكم هو من يَجُرُّ القاطرة إلى هذا أو ذاك.

ونَفْيُ الطاعة بـ " لا " النافية للجنس يفيد نفي جنس طاعة ولي الأمر إذا عصى الله ورسوله، وأوثر عموم النفي هنا مع أن الظاهر نفي طاعتهم له فيما عصى فيه الله ورسوله لا في عموم أوامره وقراراته، وفي هذا مبالغة في نفي طاعتهم لولي الأمر.

في هاتين الجملتين دلالة على ضرورة أن يستشعر الحاكم أنه حين يتعامل مع شعبه فإنه يتعامل مباشرة مع الله جل جلاله ؛ فليختر لنفسه السبيل محسنا كان أم مسيئا، مطيعا كان أم عاصيا، وكذلك ينبغي أن تستشعر الأمة أنها حين تتعامل مع الحاكم فإنها تتعامل مع الله جل جلاله، وهذه المكاشفة والمصارحة هي السبيل إلى تحقيق رتبة الإحسان الذي عرفه الرسول ﷺ في قوله "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ" ""[1]".

قوله ﷺ:

" **قُومُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمْكُمْ اللَّهُ** "

ختم سيدنا أبو بكر ﷺ خطبته بهذه الجملة التي أمر فيها المسلمين الحاضرين بالقيام إلى صلاتهم، وجعل جواب الأمر طلب الرحمة لهم من الله جل وعلا.

وإقامة الصلاة طاعة لله جل وعلا؛ لأنها عماد الدين وركنه الركين الذي لا يسقط عن المكلف، وذُكِرَتْ هذه الجملة بعد قوله "أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" لتكون إثباتًا عمليًا لطاعته لله ورسوله؛ وهذا من حسن التجاور والتناسب بين الكلام.

و"قوموا" فعل أمر من القيام، والقيام إلى الصلاة فيه مزيد العناية والنشاط لأدائها؛ لأن من قام للشيء أخذه بقوة وعزم ؛ ولذا جاء التعبير معها بالقيام

(١) سنن ابن ماجه أبواب السنة باب في الإيمان حديث رقم ٦٣ .

في قول الله جل جلاله: "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ**" (المائدة٦)، وشَنَّعَ الذكرُ الحكيمُ على المنافقين كَسَلَهُمْ في القيام إليها؛ لأن القيام يستلزم النشاط، والكسل ضد النشاط؛ فقال تعالى: "**وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى**" (النساء١٤٢)؛ ولاهتمام القرآن الكريم بالنشاط والقوة في الصلاة سَمَّى الصلاة نفسها قياما كما في قوله جل وعلا: "**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً**" (المزمل ١ ،٢) أي صَلِّ بالليل.

والقيام إلى الصلاة فيه حُسْنُ استقبال لها بما يُسْتَقْبَلُ به الضيف الكريم من القيام له لحسن استقباله والعناية به، وتَنْزِيلُ الصلاة منزلة الضيف الكريم، ومعاملتها بما يُعَامَلُ به الضيفُ جارٍ على سبيل الاستعارة المكنية، حيث شُبِّهَتِ الصلاةُ بالضيف الكريم، ثم حُذِفَ المشبه به وهو الضيف، ورُمِزَ له بالقيام الذي يكون عند استقباله تكريما له، وإذ حُمِلَ هذا الكلام على تقدير حذف المضاف، أي: قوموا إلى أداء الصلاة، فإنه لا يفيد هذا المعنى الذي أحسنت الاستعارة السِّفَارَةَ عنه۰

وفي إضافة الصلاة إلى ضمير المخاطبين في "صَلَاتِكُمْ" حَثٌّ لهم على مزيد العناية بالصلاة؛ لأنها مضافة إليكم ومنسوبة إليكم، وفي هذه الإضافة أيضا تكريم لكم؛ لأنها الركن الأعظم في الدين؛ فهي شرف لمن كانت في عمله وميزانه، وهذه الإضافة جاءت في الكتاب العزيز، كما في قول الله جل وعلا: "**وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ**" (الأنعام٩٢)، "**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ۰ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**" (المؤمنون ١، ٢)، "**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**" (المؤمنون ٩)، "**الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ**" (المعارج٢٣)، "**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**" (المعارج٣٤) "**الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**" (الماعون٥).

وقوله " يَرْحَمْكُمْ اللَّهُ " جواب الأمر، والفعل المضارع مجزوم في جواب الأمر، وهذا يدل على أن قيامهم إلى الصلاة يترتب عليه رحمة الله جل وعلا لهم،

فمن قام إلى الصلاة دخل في رحمة الله جل وعلا، وفتحت له أبواب الرحمة، وهذا من دعائه ﷺ عند دخول المسجد، كان يقول" اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ""[1]"؛ فمن دخل المسجد دخل في رحمة الله جل وعلا.

وإسناد الفعل "يرحم" إلى اسم الجلالة "الله" فيه دلالة على عظمة هذه الرحمة وسعتها لأنها من الله جل وعلا: "**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**" (الأعراف١٥٦).

هذا، والله تعالى أعلم، وأسأله جل جلاله أن يرفع عن العالم ما نزل به من وباء طاعون "كُوْرُوْنا" الذي رَجَّ العالمَ كُلَّهُ رَجًّا، ومات فيه إلى الآن أكثر من سبعين ألفا في أنحاء العالم، وأُغْلِقَتْ بسببه المساجد، حتى الحرمين الشريفين، وعُطِّلَت الصلواتُ والجُمَعُ والمدارسُ والجامعات، ولَزِمَ الناسُ بُيُوتَهُمْ، نسأله جل في علاه أن لا يؤاخذنا بذنوبنا وتقصيرنا وغفلتنا وجهلنا وبُعْدِنا عنه وتفريطنا في جنبه، وأن يرزقنا السلامة والعافية وحسن الخاتمة ٠ وآخرُ دعوانا أَنِ الحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله تعالى على نبينا الأكرم سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين وسلَّمَ تسليما كثيرا كثيرا ٠

سلامة جمعة علي داود
عميد كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
دسوق سَحَرِ الخميس ١٩ شعبان ١٤٤١ هـ
١٢ أبريل ٢٠٢٠ م

(١) سنن ابن ماجه أبواب المساجد والجماعات ، باب الدعاء عند دخول المسجد ١/ ٢٥٣ حديث رقم ٧٧١ ٠

فهرس المصادر والمراجع

١- إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع لتقي الدين المقريزي ت محمد عبد الحميد النميسي ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
٢- الإيضاح للخطيب القزويني ط مكتبة الآداب بالقاهرة .
٣- البداية والنهاية لابن كثير ت علي شيري ط دار إحياء التراث العربي.
٤- تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطي ت حمدي الدمرداش نشر مكتبة نزار مصطفى الباز ط أولى: ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
٥- تاريخ الطبري ط دار التراث، بيروت ط ثانية ١٣٨٧ هـ .
٦- جامع معمر بن راشد الأزدي ت حبيب الرحمن الأعظمي ط المجلس العلمي بباكستان ط ثانية، ١٤٠٣ هـ .
٧- جمع الوسائل في شرح الشمائل لعلي بن سلطان محمد الملا الهروي القاري ط المطبعة الشرفية – مصر.
٨- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة لأحمد زكي صفوت ط المكتبة العلمية بيروت.
٩- الزهد لأبي داود السِّجِسْتاني ت أبو تميم ياسر بن ابراهيم وآخر ط دار المشكاة حلوان ط أولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
١٠- سنن ابن ماجه ت شعيب الأرنؤوط وآخرين ط دار الرسالة العالمية ط أولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.
١١- السيرة النبوية لابن هشام ت مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ط مصطفى البابي الحلبي ط ثانية ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م.
١٢- السيرة النبوية من البداية والنهاية لابن كثير ت مصطفى عبد الواحد ط دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان ١٣٩٥هـ- ١٩٧٦م.
١٣- شرح أحاديث من صحيح البخاري د محمد أبو موسى ط مكتبة وهبة ط أولى.

١٤- شعب الإيمان للبيهقي مكتبة الرشد للنشر بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند ط أولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.
١٥- صحيح ابن حبان ت شعيب الأرنؤوط ط مؤسسة الرسالة بيروت ط ثانية ١٤١٤ - ١٩٩٣.
١٦- الطبقات الكبرى ط العلمية لابن سعد ت محمد عبد القادر عطا ط دار الكتب العلمية بيروت.
١٧- العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى، ١٤٠٤ هـ .
١٨- عيون الأخبار لابن قتيبة ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٨ هـ .
١٩- فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ط المكتبة التجارية الكبرى أولى ١٣٥٦.
٢٠- الكامل في التاريخ لعز الدين ابن الأثير ت عمر عبد السلام تدمري ط دار الكتاب العربي، بيروت ط أولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
٢١- كتاب الردة للواقدي ت يحيى الجبوري ط دار الغرب الإسلامي، بيروت ط أولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.
٢٢- الكشاف للزمخشري ط مصافى الحلبي ط أخيرة.
٢٣- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي ت بكري حياني وصفوة السقا ط مؤسسة الرسالة ط خامسة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٢٤- لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف .
٢٥- مسند الإمام أحمد بن حنبل ت شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرين ط مؤسسة الرسالة ط أولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .
٢٦- مسند البزار "البحر الزخار" ت محفوظ الرحمن زين الله ط مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة ط أولى.
٢٧- المعجم الأوسط للطبراني ت طارق بن عوض الله بن محمد، وآخر ط دار الحرمين القاهرة .

٢٨- المعجم الكبير للطبراني ت حمدي بن عبد المجيد السلفي ط مكتبة ابن تيمية القاهرة ط ثانية.
٢٩- مغني اللبيب لابن هشام ت د مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ط دار الفكر، دمشق ط سادسة، ١٩٨٥.
٣٠- موطأ مالك ت الأعظمي ط مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية بالإمارات ط أولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
٣١- نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ط دار الكتب بالقاهرة ط أولى، ١٤٢٣ هـ.